

# المنخل الدهرية

في

تخطيط مدينة الإسكندرية

تأليف

محمد مسعود

أحد معلمي مدرسة رأس التين الأميرية



## إهداء الكتاب

إلى

من شدّت ورق فضائله على أغصان مجده

وهبت نسيمات القبول من مطلع سعده

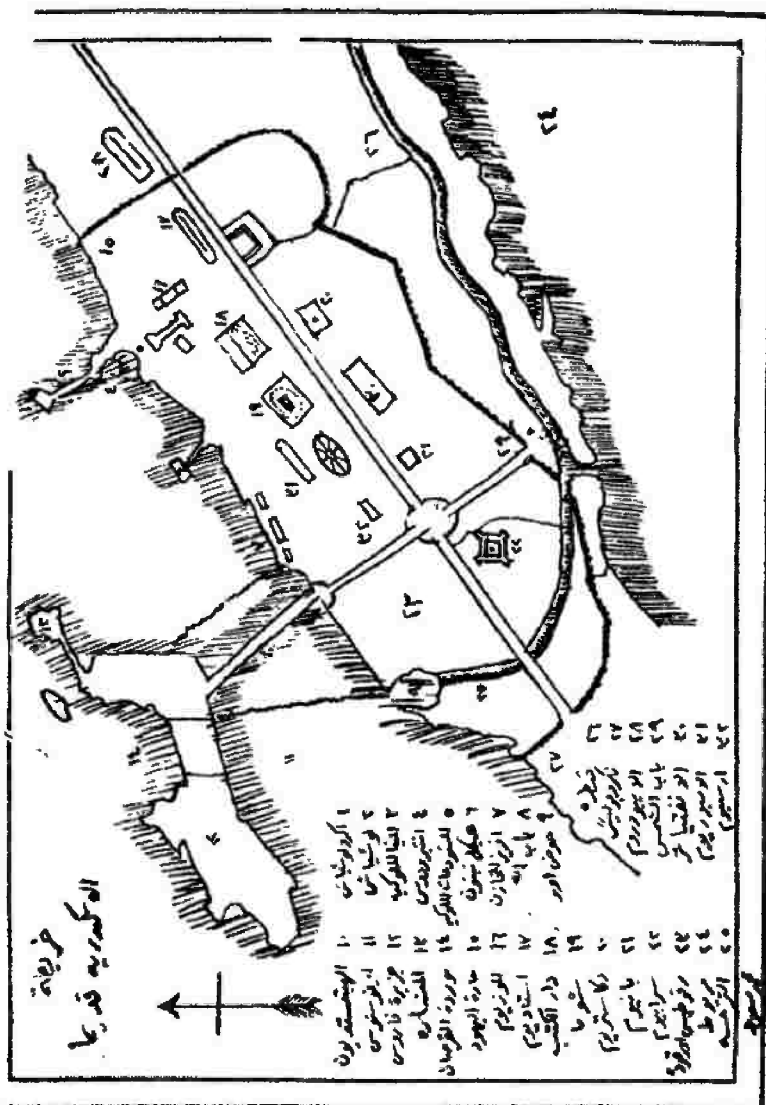
المتربي في حجر الفصاحة

والمتغذي بلبان السباحة

صاحب العطوفة

- علي باشا مبارك -

ناظر المعارف العمومية





## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مالك الملك، مسير الفلك ومجري الفلك، سبحانه أنشأ هذا الوجود طبق مراده، وأورث الأرض من شاء من عباده، فخططوا المدن والثغور، وأسسوا الهياكل والقصور، وأتقنوا ذلك غاية الإتقان، حتى نادى لسان حاله ليس في الإمكان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أسس قواعد الحق وأعلى مناره، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيله واقتفوا آثاره.

وبعد فإنه لما كان البحث عن الآثار القديمة ثمرة فن التاريخ الذي اهتم به المتقدمون وكان يهمننا نحن الإسكندريين أن نعرف ما كان ببلدتنا الزاهرة من الآثار الباهرة التي شيدتها الأولون ولقدّم عهدها بحث عن حقيقتها المتأخرون ألزمت نفسي أن أجمع كتاباً أذكر فيه ما أثبتته مشاهير العلماء من الأقوال التي أماطت عن ذلك حجب الريبة وبددت سحب الشك عن أفق تلك المسائل الغريبة وشمرت عن ساعد الجد والاجتهاد وتوكلت على رب العباد وكشفت القناع عن محيا تاريخ الدول الثلاثة اليونانية والرومانية والعربية وترجمت فيها عما يتعلق بذلك من العبارات الزائفة والجميل الفائقة وألفت هذا الكتاب المشتمل على ما يتشوق للوقوف عليه كل من تزينت سماء عقله بنجوم الأدب واعترف بما لمطالعة التاريخ من المزايا وبلوغ الإرب.

وسميته بالمنحة الدهرية في تخطيط مدينة الإسكندرية.

وكان ذلك في عهد من بزغت شمس مراحمه على الديار المصرية،  
وفاضت آثار مكارمه على من فيها من السكان والرعية. فأصبحت مصر بهمته  
كالروض الوريق، عزيزنا وولي نعمتنا توفيق، متع الله بوجوده كل الأنام،  
وأتحف بطالع سعده الأيام، وحفظ أنجاله ورجاله، بجاه خاتم الرسالة.

آمين

## لمحة عامة

إن تأسيس مدينة الإسكندرية متأخر جداً عن تاريخ تأسيس مدن مصر الأصلية الموجودة على شاطئ النيل وفي أثناء القرون العديدة التي ارتفعت فيها علوم مصر وصنائعها إلى أعلا ذرى التحسين والإتقان، كانت بقية سكان الدنيا المعلومة سابحة في بحار الجهل بالكلية، هائمة في أودية التوحش والهمجية. ومع ذلك كان أهل آسيا يغيرون على وادي النيل للاستيلاء عليه طمعا في التمتع بخيراته ومحصولاته والأثيوبيون الحبشان يجتازون الشلالات رجاء أن تثبت أقدامهم في أراضي إيزيس وأوزيريس «معبودي مصر» وقد اتسع نطاق التمدن في هذه الأعصر وانبعثت أنوار العلوم في مطارح أشعتها وأخذت هذه البلدان السعيدة في تشييد المباني العظيمة والآثار الفخيمة التي ما زالت إلى الآن على حالتها الرفيعة لا تبالي بكر الأعوام ومر الدهور والأيام ومن هذه المباني مدن منفيس وهليوبوليس وصاو منديس التي شيدت قبل الإسكندرية بعهد بعيد وهذه الأخيرة هي المتميزة عن تلك المدن بحفظ ما مر فيها من الحوادث ويخصها التاريخ بأحسن الذكر وأبلغ الوصف ولو تأمل الإنسان إلى أخبار تأسيسها وأهميتها في مركز الدنيا القديمة وأطلع على ذكر نضارتها وحضارتها وأنها كانت مقتبس أنوار العقول كما دلت على ذلك الأخبار لانجذب عقله إلى استحسان هذه العاصمة واختيارها عن سواها وهي في الحالة الراهنة بالنسبة لحالتها السابقة كملت كان في حياته حسن السيرة فحسن أخباره يجعلنا نعتبره كأنه حي موجود بيننا كيف لا واستماع أخبار ما كانت عليه هذه المدينة من إتقان بناء وغرابة صنعة واحتفال تنميق أبهى وأرق من

مشاهدة مبانيها التي نراها الآن بالعيان هكذا كانت الإسكندرية التي كانت متزينة الأرجاء بالهياكل والأعمدة والمسلات إلى غير ذلك من المباني المتينة والآثار الفخيمة وبعد أن ارتفعت في عهد الرومانيين والبطالسة إلى أوج التمدن والاعتبار رأت سقوط هياكلها وهبوط أصنامها لما نشأ في هذا الوقت بها من الاضطهادات الدينية والفتن المليية التي استدامت إلى القرن الرابع فنشر طيودوز الديانة المسيحية في آفاق المشرق ووطدها فيها ولما استولى المسلمون بعد ذلك بقرنين ونصف على مصر جعلوا الكنائس مساجد وهدموا غالب الأبنية لمصلحة لهم ومن هذا العهد إلى أوائل القرن التاسع عشر من الميلاد كانت الإسكندرية كأنها لم تكن قبل بل طوي ذكرها كطي السجل للكتاب وذلك لما تراكم على أطلالها من الرمال البحرية التي أدرجتها في طي الخفا بعد أن نالت من التمدن حظاً وافراً لم تبلغ شأوه مدينة قط في ذلك العهد وصارت من جرى ذلك كمقبرة فسيحة الجوانب شاسعة الأرجاء غيبت في بطونها تلك الفواضل النفيسة كما تغيب في المقابر الحقيقة أعضاء الإنسان.

وكان بقرب الإسكندرية قرية صغيرة على ساحل البحر وعلى البرزخ الضيق القائم مقام الهبتستديون الذي كان موصلاً جزيرة فاروس بالأرض القارة وكانت هذه القرية منفصلة عن المدينة القديمة بعدة أسوار متينة وكانت تسمى بالإسكندرية أيضاً ولما دخلها الفرنسيون كانت ذات منظر تتخطاه العين حيث كانت أبنيتها على النمط القديم الذي لا رونق له ولا تنميق فيه مع ضيق طرقها الغير مبلطه المشحونة بالقاذورات وقلة سكانها الذين كان يبلغ عددهم ثمانية آلاف نفس فقط ومع ما دهمها من هذه الخطوب المهمة والأخطار المدلهمه كانت لم تزل بلدة لها في ميدان التجارة أوفر نصيب قهراً عن

مجاراة مدينتي رشيد ودمياط الموجودتين على مصبي الفرعين الغربي والشرقي من النيل لها وذلك لما لوضع مينائها الطبيعي من المزايا العظيمة التي جعلتها معدودة من أعظم مواني البحر الأبيض المتوسط.

وبعد انجلاء الفرنسيين عن مصر بخمس سنين رجع عدد سكان الإسكندرية هابطا إلى ٥٠٠٠ نفس سنة ١٨٠٨ وذلك لعدم وجود الماء الصالح للشرب فيها وفي سنة ١٨١٨ في ولاية المغفور له الحاج محمد علي باشا بلغ عدد سكانها ١٢٠٠٠ نفس وفي سنة ١٨٢٥ م أعني بعد إنشاء ترعة المحمودية تضاعف هذا العدد بسبب جري الماء العذب تحت ربوعها وبلغ عدد سكانها في سنة ١٨٤٩ م نحو ١٠٠٠٠٠ نفس أما الآن فيزيد سكانها عن ٢٥٠٠٠٠ نفس منهم ٦٠٠٠٠ أوروبي وقد نظفت الآن حاراتها وبلطت شوارعها وحسنت بما يجعلها من عداد المدن الأفرنجية ورتبت بحيث صار يصعب على الغريب الذي زارها لأول مرة أن يصدق أنها مدينة شرقية وكل بيان يتجدد فيها فجارٍ وضعه على النمط الأفرنجي ولا تجد حارة تحظى بذلك النمط دون أخرى.

أما فنادقها ومنازل أغنيائها فهي غاية في الإتقان والتحسين كالقصور المشيدة في شارع باب شرقي والمنشية الكبرى ولم يبق الآن من مزايا الإسكندرية التي كانت مشتهرة بها في القدم سوى الشهرة التجارية وبعد أن كانت مينائها قبلا تتقاطر إليها المراكب من كل ناحية تعطلت مدة طويلة ثم عادت الآن إلى ما كانت عليه من النجاح القديم ولا غرو إن عدها الإنسان من أحسن مواني أفريقيا والمشرق فإن من يشاهد حركتها التجارية يعلم ما لأهالي

هذه المدينة من مزيد الشغف وعظيم التولع بالتجارة فإن في كل عشرة منهم تسعة يتعاطون الأعمال وبالجملة فإن سكان الإسكندرية منهم المتجر بالأقطان والغلال وما مائل ذلك ومنهم الباعة الأصاغر المنحصرة تجارتهن في بيع الأشياء المصنوعة في أوروبا خصوصا في فرنسا وإنكلترا والنمسا.

وقد شغلهم ذلك عن استخراج الآثار القديمة المخفية في باطنها ومن المنافع العمومية أن أوجد في مينائها رصيف طويل يقيها من تلاطم الأمواج فصارت بذلك آمنة حصينة وقد حاول البعض من حكام الترك في الأزمان السالفة أن يصنع لها رصيفا من الأعمدة والأحجار الضخمة التي وجدت في الآثار القديمة فما تسنى له ذلك.

أما آثارها فقد تنافست في شرائها الإفرنج كالمسلات التي ما زالت تزدان بها الساحات العمومية بمدينتي لوندريه ونيويورك أما المعارف والفنون التي كانت تفتخر بها على جميع مدن الدنيا القديمة فلم يبق لها أثر البتة في عصرنا هذا.

ومن الأسف أنه في الزمن الذي حصلت فيه الإسكندرية على زيادة التقدم في عهد جنتمكان محمد علي باشا ونجله دولتو سعيد باشا لم تتوجه العناية إلى إظهار تلك الآثار الدالة على تاريخها وحفظها، تصل إليه يد الإمكان نعم قد أرسلت جملة منها إلى متحف بولاق بمصر ولكن أغلبها يتعلق بالتاريخ الروماني. فكان الأجدر أن تحفظ بالإسكندرية لأن وجودها بجانب غيرها من آثار الفراعنة وملوك مصر الأول مما يحط بقدرها وينزل من شأنها ومن العبث الآن البحث على آثار الإسكندرية لداعي زيادة العمران وإتساع البنيان.

وبالاختصار نقول إن الإسكندرية قد استرجعت شهرتها القديمة من حيث التجارة فقط فإن قيل لماذا لم تسترجع أيضا شهرتها العلمية نقول إنه وإن كان فيها من فحول الرجال وأكابر العلماء من لو سمح الدهر برجوع الإسكندرية إلى حالتها الأصلية لأمكنهم أن يقوموا مقام إقليدس ودمتريوس وفالير وزينودوت وكاليماك واراتوستين وسيرين وفيلون وابيان وأوريجين وغيرهم ولكن من يجمع لنا من هم كأولئك القوم ذوي العقول المستنيرة ليزيلوا برقع ظلمات الجهل بطلعة شمس حقائق المعارف فتظهر صورة العلم من اجتهادهم في أحسن تقويم بعد اندراجها في طي العدم الرميم وتصير مدينتنا قاموس المعارف الفلسفية وبحر مسجور العلوم اللدنية.

## عصر اليونانيين

في سنة ٣٣٢ قبل الميلاد أي سنة ٤٢٢ من تأسيس رومه والسنة الأولى من الأولمبياد الثاني عشر بعد المائة تبوء عرش مصر إسكندر الأكبر الذي سرح الجيوش الكثيرة إلى بلاد العجم وأسس مدينة سماها باسمه وتوضح ذلك أنه لما ظفر بداريوس الثالث (داري) في واقعة أسوس وأوقع به زحف إلى فينقيا واستولى على صور وغزه ثم احتل بلاد مصر فنظم أمورها الداخلية والخارجية ورتب القواعد وأقام الناموس وصرف الجهد إلى إبقاء العادات والأخلاق على ما هي عليه فنال بذلك محبة الشعب المصري وثقته فيه ثم توجه إلى واحة آمون ليستشير ألهتها فلما عرفته الكهنة وقع الإقرار بينهم على أنه ابن المعبود آمون را الذي يوجد هيكله بمدينة طيبة ولما عاد من تلك الجهات رأى قرية مشيدة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط تسمى راقوطيس قبال جزيرة فاروس على برزخ ضيق من الأرض تحده مياه البحر من الشمال وبحيرة مربوطيس من الجنوب فبعدان تأملها التأمل الطويل وأمعن فيها كل الإمعان راق في عينيه موقعها وحسن لديه وضعها وكان جميع سكانها من الصيادين والرعاة ولهم هيكل يعبدون فيه إيزيس وسيرايس. وقد كان الإعجام وقبلهم الفراعنة حصنوا هذه القرية ليكتفوا غائلة اللصوص الذين هتكوا حرمتها وكدروا صفو راحة أهلها بإغاراتهم المتوالية وجنایاتهم المتواترة.

وقال استرابون «أنه لما سر ملوك مصر مما صار في حوزتهم وفي قبضة يدهم من البلاد حسوا باحتياجهم إلى المخالطة مع غيرهم كما هو شأن المعاملة

فوضعوا في هذا المكان حرسا يمنع دنو من ليس بينهم وبينه معاملة ويصد هجمات الأعداء خصوصا اليونان الذين لضيق أراضيهم عليهم وتعذر طرق المعاش عندهم تعاقدوا على سلب مالا يجدونه مباشرة لديهم وكانوا يفعلون ذلك كلما لاحت لهم الفرصة وسنحت لهم النهضة فصار القتل لهم ديدنا والنهب سجية ومغنا».

ولما أدرك الإسكندر ما اختص به وضع راقوطيس من المنافع والمزايا استنفد وسعه وبذل مجهوده في تأسيس مدينة عظيمة تكون عاصمة فتوحاته وفوض إلى دينوقراطس مهندسة الخصوصي تنفيذ مآربه واعتمده لإنجاز قصده فابتدأ الأعمال بكل همة ونشاط وقال ديودور دوكتكورس إن موضع أسوار هذه المدينة خطت بالخير والدقيق فكانت عبارة عن الفضاء الكائن بين البحر وبحيرة مريوط وكان طول كل من ضلعيها العظيمين اللذين هما عبارة عن ساحلي البحر والبحيرة ثلاثين استاده (غلوه) أعنى ٣٧٥٠ خطوة باعتبار أن الاستادة ١٢٥ خطوة وطول كل من الضلعين الآخرين أي عرض البرزخ التي أسست المدينة عليه ثمانية استادات أي ١٠٠٠ خطوة وقد بين الإسكندر بنفسه مواقع المحلات العمومية والهياكل الواجب بناؤها لمعبودات اليونانيين والمصريين وكان أتباعه هذا القصد وسلوكه هذا المنهاج دليلا على اعتدال مشربه وصواب تدبيره وسداد أموره وترك الإسكندر بها فرقة من الحرس المقدوني وأذن لكثير من اليونانيين والأسويين أن يتوطنوا بها.

وكان غرض الإسكندر من تأسيس هذه المدينة تغيير أحوال العالم مبالغة في الحضارة والتمدن وربط الأمم التي كانت خاضعة لشوكته بروابط تجارية

وثيقة هذا ما دعاه إلى انتخاب هذه البقعة من سواحل برّ مصر منفذاً لأفكاره السامية واقتراحاته العالية.

وما لبث أن تم هذا المشروع حتى أقبل اليونان على هذه المدينة جماعات وشتى وتزاحموا على موارد فصار ت بلدة يونانية صرفاً لا منازع لهم فيها ولا مشارك وصارت بعد تأسيسها بزمان يسير أبهج مدن البلاد المصرية لما اشتملت عليه من تمام التمدن واختصت به من الآثار التي تدهش برونقها الأبصار وتحير بدقتها الأفكار وورد إليها الجسم الغفير من أرباب العقول المتنورة والمدارك السامية كالفلاسفة والعلماء وقد حكم البطالسة على بلاد مصر مدة ثلاثة قرون لم تنزل فيها مدينة الإسكندرية مركز حكومتهم ومقر أهل الحل والعقد منهم لا تزداد على طول العهد الأجرة.

## استطرد لا بأس به

### إسكندر الثالث المقدوني

هو المشهور باسم إسكندر الأكبر ولد في خريف سنة ٣٥٦ قبل الميلاد ومات بمدينة بابل في شهر يونيه سنة ٣٢٣ وكان من أتم الملوك حزما وعزما وفراصة وفهما ومن فحول الرجال الذين أدهشوا العالم بأعمالهم العظيمة وهو ابن فيليش ملك مقدونيا أحد دهاة السياسة الذي بثاقب رأيه وظاهر حزمه وشديد نكايته رتب الجيوش وجمع شتات الوحدة اليونانية ولم يتفرق شعثها وأخضع لأحكامه متوحشي شمال بحر ايجيه وضم قوى اليونان في قبضة واحدة ليصادم بها مملكة الأعجام وقد اقتدى الإسكندر بأبيه في أخلاقه الحميدة وآرائه السديدة فرتب العساكر ودبر أحوالها وأدرك المشروعات المفيدة ونفذها بفهم تقصر عنها قرائح مشاهير الفحول وكان الإسكندر منذ نعومة أظفاره مخائلا الذكاء عليه لائحة وأمارات الظفر وشواهد الشرف في عينيه بينة واضحة وهي صفات تحلى بها والداه من قبله وقد حدث ذات يوم أنه سأل سفير العجم عن أحوال مملكة سيده وعن عادات أهل بلاده وأخلاقهم ونظاماتهم فأدهشه بما كان يودعه في هذه الأسئلة من العذوبة المزوجة بالبلاغة والاختصار وكان مشغوبا بمطالعة مؤلفات «هوميرس» الشاعر اليوناني المشهور ومولعا بالاقتداء بالبطل المشهور أخلاوس والتأسي به في أعماله وكان يفتخر بأنه غصن من دوحته وسهم من كنانته وكان مؤدبه في الصغر بطروقلس ثم هفستون وصار ارسطاطاليس أستاذا له من سنة ٣٤٥ فأحسن تربيته ولقنه

الخلال الحميدة كاحتقار الزهو والكبرياء وبث فيه حب البحث في حقائق الأمور وسبر غورها ثم التفت إلى العلوم فأخذ منها بقسط وضرب فيها بسهم وتأدب وبرع واعتنى بالفلسفة ولما كافح التراسيين أظفره الله بهم وأظهره عليهم وكان بنفسه قائداً لفرقة الفرسان (٣٣٨) وفي السنة التالية قهر الأمير بلورياس ملك اليريا وأورد جيشه موارد لا صدر لها وتصادف أن حصل في تلك الأثناء أمر كاد أن يعرض مستقبل الإسكندر إلى أكبر الأخطار وذلك أن أباه عدل عن أولمبياس زوجته وطلقها ليتزوج بكليوباتره بنت أخت أثال المقدوني المشهور برسوخ نسبه وكرم أصله فلما رأى الإسكندر ذلك من أبيه انحاز إلى والدته وتنازع لأجلها معه على خوان المدعويين للعرس فأراد أبوه أن يفتك به فتمكن الإسكندر من الفرار والاختفاء مع أمه ببلاد أيبيزيا ثم صالحه مع أبيه كل من ديمارات وكورنت وما زالت الفتن راسية القواعد ثابتة الوطائد مشيدة الأركان إلى أن قتل الملك وعفت آثار حياته وقام بأعباء المملكة وتديرها من بعده ابنه إسكندر وكان عمره عندما تربع في دست المملكة المقدونية عشرين سنة وكان أول حكمه مخوفاً بالأخطار لأن كليوباترة زوجة أبيه كانت وضعت ولداً وأثال كان على رأس جيش جرار قصد بتحشيد محاربة الأعجام.

ولما انتشر خبر موت الملك فيلبش اشتدت عرى الهرج وانحلت عقال الفتن فاستجلب ديموستين قلوب أهالي أتينه وهيلاده وتساليا وأجرى المخابرات مع أثال والعجم وطردت أهالي امبراسيا العساكر المحافظين وقاموا على قدم وساق وحاصرت أهالي طيبه عساكر قدما وأخذ المتوحشون من

التراسيين والبيوثيين والجيطيين والاليريين شمالا وغربا في إضرام نيران الفتن ونفخ رماد المحن.

وكان رفقاء الملك من الشبان ينصحونه أن يوقع الفشل في صفوف أعدائه فأصاخ إليهم ووعى حديثهم وابتدأ يعمل بنصائحهم فأهمل جهة الشمال التي كانت قوى الأعداء فيها مؤلفة من جيوش ليس لها نصيب من النظام والترتيب حتى تخشى أضرارهم وبث الرصد والعيون في معسكر أтал مصرحاً لهم بقتله إذا تسنت لهم الفرصة ثم استلم بنفسه قيادة الجيوش ووضع الحرس الكافي على مضيق تامبه وجمع رؤساء الأشراف من التساليين وألزمهم الدخول في طاعته والإذعان إليه وأحذى حذوهم جبلي الجنوب (ايانيين ومليانيين ودولوبيين) ففتحوا له دربند ترمويل ولم يصادف معارضة من جهة الامفكتيونيين وكان بقدا وطيبه محافظون من المقدونيين فلم يتمكنوا من الجنوح إلى الثورة بل انصاعوا إلى شوكته خاضعين وعقد الإسكندر عقب ذلك مجلسا عاما بقورنثه ولقب نفسه فيه بالاستراتيج العمومي للهيلينيين (أي القائد العمومي لجيوشهم) فوردت عليه الوفود من الفلاسفة ورجال السياسة وأرباب الفنون والصنائع لتهنئته خلا ديوجينس الكلبي فإنه بقي في برميله منتظرا زيارة الإسكندر له ولما قفل الإسكندر راجعا إلى مقدونيا انتهى إليه خبر موت أтал وإن أمه أولمبياس قد سعت في قتل ضرثها كيلوباترا وابنها الذي رزقت به من فيلبش فلما اطمأن الإسكندر بذلك وسكن قلقه قصد الأقوام المتوحشين الساكنين في الجهات الشمالية وقطع وادي الأينر (مارتزه) وقهر الترانيين وهاجم الترياليين وحاصرهم وسد مساربهم وأخذ عليهم مهاربهم ثم اجتاز نهر الدانوب على قنطرة وهزم الجيطيين وقطع نظامهم وهدم مدينتهم وبعد أن

قرب القربان إلى الآلهة زوش وهيراكليس ودانوب منح المتوحشين ما أتوا يلتمسونه منه من الصلح والهدنة لأنه ما كان أراد بقهرهم سوى إلقاء الرعب في قلوبهم وما كان بنيته قط الاستيلاء عليهم ثم شخص من تلك الجهات إلى إقليم أليريا بعد أن مر على بلاد الإغريانيين محالفيه (صوفيا في أيامنا) وكان وصوله إلى الأليريين في يوم استيلاء هؤلاء على مدينة بيليون مفتاح مقدونيا من الجهة الغربية وكانت المخاطر محدقة به في هذه الحروب (وذلك أنه أشيع كذباً أنه قدم مات) فنشر أهالي هيلاده لواء العصيان وخلعوا ربقة الطاعة من عنقهم وصار كل من الإتيينيين والإتيوليين والطبيين متهيئين للحرب والنزال وكان الإسكندر شديداً على أهل الثورة لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم فقصد مدينة طيبة ووصل إليها في أربعة عشر يوماً واستولى على حصونها الشاخحة الذري ثم دمرها وجعل عاليها سافلها وباع من أهلها ثلاثين ألف نفس فلما نمت ذلك الخبر إلى علم الاتيينين لزموا جانب السكون والطاعة وخافوا أن يلزمهم ما ألم بإخوانهم الطبيين.

وبهذه المثابة توصل الإسكندر إلى إخماد نيران الفتن فثبتت قواعد دولته وتأيدت عراها في مدة سنة واحدة أما هو فصار الملك الوحيد على مملكة فيلبش بحذافيرها وما يتعلق بها من البلدان الأخرى والمستعمرات ولما فاز في مشروعه هذا أخذ يتأهب للغارة على بلاد العجم ومن يتأمل في هذا الأمر يندهش من الفرق الكائن بين المملكتين فإن بلاد مقدونيا كانت عبارة عن جزء من ثلاثين جزءاً من مملكة العجم على أنه ما اعترض في سبيل نجاح هذا المشروع عائق إلا واجتهد الإسكندر في كبحه وإزالته من ذلك أنه اقترض ثمانمائة تالان من الدراهم لتحشيد الجنود وتعبية مهمات الحرب وأوزارها فلم

يبقى معه من ذلك عند سفره سوى ستون تالاناً (أي ٣٠٠٠٠٠٠ فرنك) وكان له نفوذ وكلمة في أقوام الهيموس القاطنين بجوار الدانوب وفي الألبانيين أما التساليون مخالفوه فكانوا في حوزته وقبضة يده وكذلك أهل الأيبير أما بلاد هيلاده التي ساومت بلاد كورنث الحلف والمعاضدة فلم تمد له يد المعونة والموازنة إلا بشيء يسير وكانت دوننمته مركبة من ٣٥٠ فرقاطة و ٣٠٠٠٠ محارب من المشاة و ٤٠٠٠ من الفرسان فترك الإسكندر إلى انتيباتر خليفته على مقدونيا ثلث هذا العدد فأكمل بذلك النقص الذي كان بجيوش المحالفين ولم يستصحب معه إلا ٣٠٠٠٠ مقاتل من المشاة و ٥٠٠٠ من الفرسان ولم تكن أسباب نصرته هذا الجيش كثرة العدد فإن قلته ظاهرة بل لحسن نظامه وتما ترتيبه وإما نأتي على شرح نظام هذا الجيش بالتفصيل بما في ذلك من الأهمية فنقول. إن نظام الجيوش عند قدماء اليونان كان يقضي أن المشاة من العساكر يلزم أن يتسلحوا بأسلحة كثيرة ولذا كان عليهم المعول في مواطن الحرب حتى أن أفقراطس لما أنشأ الجيوش الخفيفة الأسلحة كان سبباً لوقوع الفشل في عساكر اسبارطه وعلى العموم فكان يوجد في عساكر المقدونيين من هذا النوع ومن النوع الأول الذي كان يسمى بالعساكر الثقيلة الأسلحة وكان عساكر الأسلحة الخفيفة يحملون صنفاً من المزاريق يتغير طولها من ١٤ إلى ١٦ قدماً وسيفاً قصيراً ودرعاً وترساً مستديراً وكانوا صفوفاً سمك الصف منها ستة عشر رجلاً وكان للعساكر ذوي الأسلحة الثقيلة درع وترس خفيف وسيف مدبب طويل مثل ما لعساكر الأسلحة الخفيفة وكانوا أحسن عساكر جميع الجيش وأكثرهم نظاماً وأشدّهم بأساً وكان الطابور الأول منهم يسمى أجيا (أي الحرس الملوكي) ويوجد في الخيالة مثل ذلك وكان رؤساء هذه الفرق من

النبلاء والأشراف وأسلحتهم قاصرة على الخوذة والدرع والسيف والمزراق ثم يي ذلك الفرق الهلينية وقد أضاف الإسكندر على هذه العناصر الأساسية عنصرا آخر لم يكن معروفا قبله وهو أنه أتى بسكان شمال وشرق مقدونيا من الجليين والصيادين وقاطعي السبيل والتراسيين والأغريانيين وهم متسلحون بالسهام والقسي ووضعهم في مقدمة صفوف جيشه وكان رؤساء الفرق المتحالفة من المقدونيين وكان عدد المكلفين بملاحظة لوازمات العساكر ومهماتهم عشر العساكر المشاة والجدول الآتي يتبين منه نوع عساكر كل فرقة من جيش إسكندر.

#### الخيالة - أولا الخيالة الثقيلة:

| عدد  |                |
|------|----------------|
| ١٨٠٠ | مقدونيون       |
| ١٢٠٠ | تساليون        |
| ٤٠٠  | يونان متحالفون |
| ٣٤٠٠ |                |

#### ثانيا الخيالة الخفيفة

|      |                                     |
|------|-------------------------------------|
| ١٢٠٠ | مقدونيون وبيونيون يحاربون بالمزاريق |
| ٦٠٠  | أودريز                              |
| ١٨٠٠ |                                     |

٥٢٠٠

يكون مجموع الخيالة

المشاة - أولا المشاة الثقيلة

مقدونيون ٩٠٠٠

يونان متحالفون ٤٠٠٠

عساكر مجمكه ٦٠٠٠

---

١٩٠٠٠

ثانيا - المشاة الخفيفة

مقدونيون ٣٠٠٠

يونان متحالفون ١٠٠٠

عساكر مجمكه ١٠٠٠

أكونتيست ٤٠٠٠

---

٩٠٠٠

ثالثا - جيوش خفيفة

مقدونيون بالقسي ٥٠٠

كريدون ٥٠٠

أغريانيون ١٠٠٠

---

٢٠٠٠

٣٠٠٠٠

يكون مجموع المشاة

٥٢٠٠

يكون مجموع الخيالة

٣٥٢٠٠

وكان تنظيم العساكر وقت الحرب كالآتي. العساكر الثقيلة في القلب والمشاة الخفيفة والخيالة الخفيفة من المقدونيين واليونانيين وحاملي القسي والأغريانيين في الجناح الأيمن والتراسيون والخيالة الهلينيون والنساليون والأودريز في الجناح الأيسر ثم يتبع جميع ذلك فرقة من حاملي القسي ومما قرن حروب إسكندر بالظفر وكللها بالنجاح ثلاثة أمور الأول استعمال الجيوش الخفيفة الثاني عدد الخيالة بالنسبة لمجموع الجيش فكان عدد الخيالة في الجيوش اليونانية قليلا جدا وقد كثر أبامينونداس عددها فجعلها بنسبة عشر الجيش العامل ولكن الإسكندر رفع هذه النسبة إلى السدس لأنه كان يعلم علم اليقين أن قوة الجيش وشوكته معقودة بناصية الفرسان الثالث إنشاء صف ضباط منتخبين من الحرس الملوكي وكان لدى الإسكندر سوى ذلك كثير من المهندسين والآلات الحربية التي كانت تفوق آلات العجم اتفاقا وسرعة استعمال ولما نظم إسكندر الجيش على هذا المنوال وأحسن إدارته وتديره سافر لمحاربة الأعجام في ربيع سنة ٣٣٤ وكانت مملكة الأعجام في تلك الأيام غير وثيقة العري متداعية إلى السقوط من أوج الرفة لما منيت به من استبداد حكامها واستقلال عامليها وجنوح الناس إلى الثورة والفوضى وكان الملك وهوداري الثالث بن كودومان مستضعف الرأي قليل الخبرة واهي العزيمة

فغلبوه على أمره وشركوه في سلطانه. ولها رأي أهل بلاد آسيا الصغرى ذلك الانحلال لم يعبئوا بتابعيتهم له بل أخذوا في أسباب الاستقلال وكذلك مصر انتهزت فرصة هذا الاختلال لرفع ناف العبودية عن عاتقها هذا ولم تكن جيوش العجم مثل جيوش إسكندر في النظام والترتيب.

ولما سافر إسكندر من بلاد مقدونيا استعمل عليها انتياتروترك معه ١٣٠٠٠ من المشاة و ١٦٠٠ من الفرسان ووصل إلى بوغاز هلسبون فاجتازت جيوشه هذا البوغاز أما هو فذهب إلى ترواده (أزمير القديمة) وقدم القربان إلى بوزيدون وزوس وأخلاوس وبريام وأقام الأعياد هناك أياما ثم رجع إلى جيشه فاحتل به مدينة لمبساك وقصد الجهة الشمالية والشرقية فصادف جيوش الأعجام على سواحل نهر الغرانك وكانت هذه الجيوش تنتظره لمحاربتة ولم يسمع الحكام أقوال ممنون الرودسي ونصائحه فإنه كان قد أشار بترك الإسكندر وعساكره يتوغلون في البلاد حتى إذا أجهدهم العطش وأنهكهم التعب هلكوا أو سهل عليهم القيام بقمعهم أتم قيام ولما لم ترض الحكام والعمال بذلك قاموا وراء التل الكائن بقرب النهر المذكور وبلغت بهم الحماقة وسخافة العقل إلى عدم قبول مساعدة اليونان المجمعين أما ممنون فإنه صادم الجناح الأيمن من جيش الإسكندر مصادمة تدل على مكانته من الشجاعة والبسالة ثم أن إسكندر اجتاز النهر وذهب إلى مقام الحكام وأوقع بهم الفتك وحصدهم بمنجل الموت ولما مات من الأعجام ورؤسائهم نحو الألف ورأت ذلك جيوشهم انحلت قواهم واضطرب حبلهم فركنوا إلى الفرار ولم يبق في ميدان القتال سوى العساكر المجمعكة الذين أخذوا يقتلون أنفسهم بأنفسهم

فلما استقر الأمر على ذلك وصفا الجو لإسكندر وجيوشه أخذوا يغنمون ما تركه الأعجام على ساحة القتل وكان ما خسره الإسكندر شيئا لا يذكر.

ثم أمر إسكندر بدفن موتاه وموتى أعدائه ولما رأى أن هذا الفوز قد مهد السبيل لمشروعه اتجه نحو الجنوب وعدل عن التجول في الداخل والمسير إلى الفرات لأنه رأى أن ذلك أدعى لتوطيد قاعدة أعماله وتأييد دعائم مشروعاته ثم عرض على المدن اليونانية التي على الساحل الدخول في طاعته فلبوا دعوته وأجابوا ملتمسه وبادروا إلى ذلك سراعاً لما وقر في نفوسهم من السخط والحنق على الأعجام ثم استولى على فريجيا وليديا ولم يصادف من أهلها أدنى معارضة أو مقاومة وكانت دوننمته البحرية المركبة من ١٦٠ سفينة تساعد العساكر البرية عند الحاجة فحاربت أسطول الأعجام واستولى عقب ذلك على إقليم كاريا فلما رأى ممنون هذا الأمر تحصن ببلدة هاليكرناس فصرف حينئذ مهندسو المقدونيين عنايتهم إلى عمل فتحه في أسوار هذه المدينة وقد تيسر لهم ذلك فدخل الإسكندر يقوده النصر ويحدوه الظفر ثم مضى الشتاء في كاريا وترك قيادة جيوشه إلى برمنيون بليديا وكانت نتيجة هذه الوقائع الأخيرة أن يونان آسيا عرضا على ملك مقدونيا رغبتهم في الانتماء إليه ومات ممنون وهو محصور في مدينة ميتلين فحزن ملك العجم عليه حزنا شديدا على أنه كان السبب في موته وتوضيح ذلك أن كاريديم الأتيني أشار على ملك العجم باتباع نصائح ممنون فغضب داري من ذلك كبرا وتشاخوا وأمر بإعدامه خنقا.

ولما مضى إسكندر الشتاء في كاريا استولى على ليسييا وبمفيليا ثم نحا نحو الشمال فالتقى برمنيون في مدينة غرديون من إقليم فريجيا وكانت تلك المدينة

عاصمة هذا الإقليم ثم نزل بإقليم سيلسيا ودخل بمدينة طرس وكاد أن يموت فيها عقب استحمامه بمياه منهر السدنوس الشديدة البرودة غير أنه شفي بما بذله حكيمة المسمى فيلبش من الاعتناء والهمة ثم قصد بلاد سوريا عند خليج أسوس وفي تلك الأصقاع حصلت الواقعة الثانية لأن داري لما سمع بقرب مجيئه أتى إليه بجيش جرار يبلغ عدده ٣٠٠٠٠ مقاتل من اليونان المجمعين وعدد لا يحصى من المشاة والفرسان ومن غباوته وسوء تدبيره وعدم تبصره دخل في الجبل ظاناً أنه يحمية من عدوه أما الموقع الذي عسكر فيه إسكندر فكان داعية إلى انتصاره أتم انتصار وذلك أنه اتجه بعسكره نحو الشمال وذهب لمقابلة الأعجام ومقاتلتهم وكان الجناح الأيسر من جيشهم من جهة النهر والجناح الأيمن من جهة الجبل وكان الهجوم للجناح الأيمن المشتغل على العساكر المجمعه والخيالة والانتشار على الأعداء للجناح الأيسر والقلب الذي به داري للدفاع أما الإسكندر فقد ترأس على الجناح الأيمن من جيشه وسلم زمام الأيسر للقائد بمرمانيون وفاجأ عدوه بالمهاجمة عليه فلم تكن إلا ساعة زمن وقد ظفر المقدونيون بالأعجام وجرعوههم كأس الحمام وفرقوا شمل جمعهم ونثروا عقد نظمهم ورموهم بالثبور. والويل ووطئوهم تحت سنابك الخيل فلما رأى ذلك داري ركن إلى الفرار وأبى الانتظار وتبعه في ذلك الأمر المذموم والجبن المشؤوم عساكر القلب والجناح الأيمن ولما علم فرسان الأعجام بهذا الخبر ولوا مدبرين وانقلبوا على أعقابهم خاسرين وقد وضع المقدونيون فيهم السيف عند تقهقرهم وبالعوا في استئصال شأفتهم حتى بلغ عدد المقتولين منهم ١٠٠٠٠٠ نفس (نوفمبر ٣٣٣ ق) ولم يساعد داري على النجاة سوى سرعة عدو جواده.

وسبى الإسكندر أمه سيزغميس وأخته استاتيره أجمل بنات آسيا وأسر أولاده وأظهر لهم من التعطف والرفقة ما دل على سمو فضله وطيب أعراقه وكرم محتده. وحاول داري بعد ذلك أن ينال الصلح فلم ينجح إذ أجابه إسكندر بقوله أن مسئولية الحرب حقها أن تلقى على عاتق الأعجام بما أنهم هم الذين ابتدأوا وأنه لم يحاربهم إلا تشفيا مما فعله ملك العجم أكرزسيس من قبل في بلاد اليونان ومقدونيا.

ثم أعلن إسكندر أمارته على آسيا وأنه قد تملك عليها وعرض على داري أن يقر له بالطاعة أو ينتظره للقتال فاجتهد داري أن يميل إلى تقاسم المملكة معه لحد نهر الفرات وأن يزوجه بنته فأبى الإسكندر ذلك وكان بدمشق سفراء من عند الأثينيين والأسبرطيين والطيبين فوجه سامي التفاته إلى قطع العلاقات التي بين ملك اليونان وملك العجم وحرمان هذا الأخير من العساكر المجكمة التي هي في الواقع عبارة عن القوة الوحيدة التي يستطيع بها جيشه القيام بصدهجمات عساكر مقدونيا ولهذا الغرض نصبت حروب سنة ٣٣٢ وكانت قوى الأعجام البحرية آتية بتمامها من صور وعراد وبيلوس وسيدون (صيدا) ومن مدن جزيرة قبرص ولو كان أهل هذه المدن يداً واحدة في المدافعة عن بلادهم لما أمكن للإسكندر أن يسير خطوة واحدة في سبيل الانتصار إلا أن ما كان متحكماً بينهم من الخلاف وعدم الائتلاف كان سبباً لوجود الشقاق حتى عولوا على الفراق وقاموا على قدم وساق وصار الوصول إليهم من أسهل الأمور أما عراد وبيلوس فقد فتحت لجيوش الإسكندر أبوابها ولاقاهم أهلها بالترحاب وهشوا وبشوا في وجوههم أما مدينة صور فأراد أهلها البقاء على ما كانوا عليه من شبه الاستقلال وعدم تمكين الإسكندر من

التطرق إلى مدينتهم فلما بلغه ذلك بادر بوضع الحصار على هذه المدينة فأنسل أهلها إلى صور الجديدة وهي عبارة عن جزيرة صغيرة في وسط البحر وظنوا أنهم في ملجأ من هجمات العدو ولكن لم يصب ظنهم الغرض المطلوب إذ أن إسكندر صنع جسرا يتمكن من الوصول إليهم فما كان منهم إلا أن حرقوه فرأى أن السفن هي المؤدية لتنام مرغوبه فقدم له ملوك قبرص وأهالي فينقيا ما ينيف على ٢٥٠ سفينة رست في ميني المدينة ولما اشتبك القتال واستعرت نيران الحرب بين الفريقين توصل الإسكندر إلى عمل فتحة في سور المدينة لم يتمكن جيوشه من الدخول فيها في بادئ الأمر لكنه استولى عليها بعد ثلاثة أيام وقتل من أهلها ٨٠٠٠ نفس وباع ٣٠٠٠٠ وكان مكوث هذه الحرب ستة أشهر وكان لم يبق من سفن العجم إلا عدد يسير فأتى انتيثار المتقدم الذكر ودمر هذه السفن واستولى على جزائر آسيا الصغرى وكان الإسكندر لم يتخلص من هذه العوائق إلا ليقع في أصعب منها وذلك أن باطيس المخصي دافع عن مدينة غزه دفاع من يعلم ما للوطن من الحقوق المقدسة وأبي التسليم والرضا بالإهانة وقد جرح إسكندر في هذه الموقعة ولم يتيسر له الانتصار ثلاث مرات متوالية وفي المرة الرابعة كان الظفر قرينه والسعد رفيقه فدخل المدينة وطاف في شوارعها ووضع السيف في أعدائه حتى أتى على آخرهم وعفي آثارهم وهنا أمر يدل على ما داخل الإسكندر من الغرور والمباهاة ولا يصح أن نسكت عنه وهو أنه لما قبض على عدوه وعثر عليه أراد أن يربطه في حصانه ويدور به حول المدينة تشبها بما فعله إخلاوس عند محاصرته مدينة طرواده.

ولما كان شهر ديسمبر سنة ٣٣٢ دخل الإسكندر بر مصر الذي كان إذ ذاك عظيم الأهمية لكونه كان الواسطة الوحيدة بين الشرق الأقصى وبلاد البحر

المتوسط والمركز الوحيد للعلوم والتمدن والثروة وقد تلقى أهلها الإسكندر بكل ترحاب لما أملوه من النجاة من ظلم الإعجام واعتسافهم واحلوه في صدورهم ووضعوه فوق رؤوسهم فسر مما أبدوه نحوه من هذه العواطف وتوجه إلى مدينة منفيس حيث قرب القرابين العديدة إلى الإلهة المصريين خصوصاً إلى العجل أبيس واحترم الكهنة ورأف بمن مسه ظلم الأعجام فاكسب بذلك محبتهم واستولى على قلوبهم ومن عجيب ما يروى أنه كان بواحة أمون في وسط صحراء ليبيا غربي مصر هائف مشهور عند الهيلينيين وكان الإله الذي يعبد في الهيكل الموجود بتلك الجهات هو زوس وهو غير أمون والذي كان أيضاً بتلك النواحي وكان الطريق الذي سلكه الإسكندر في وسط الصحراء صعب العبور لشح الماء وكثرة هبوب الرمال التي ربما وارت تحتها ٥٠٠٠٠ نفس في لحظة واحدة كما حصل ذلك لقمييز ملك العجم من قبل ومما روي من الترهات والأباطيل في هذا الشأن أن المشتري دفعاً لهذه المخاطر أمر السماء أن تمطر مدراراً فهدأت الرياح وسكنت الرمال في محلها وهب نسيم لطيف ولما ضل عساكر إسكندر وتفرقوا عن بعضهم أرسل إليهم غرباناً صارت ترشدهم إلى السبيل القويم وتجمع متفرق نشرهم وكانوا إذا وقفوا من تعب السير وقفت تلك الطيور لانتظارهم وكانت في الليل تنعق لتهدي العساكر بصوتها فلا تزوغ عن الطريق ولما عاد الإسكندر من زيارته للهااتف المتقدم الذكر لم يتكلم بما رآه بل ترك عساكره يقصون ذلك وقد ألبسوه من المبالغة والإطباب ثوباً جديداً وما كانوا يقصونه هو أن الإله قد شرف الإسكندر وجعله ابناً له وقد أوصل له ذلك الخبر على لسان الهااتف وكان غرض الإسكندر من هذه الزيارة دينياً محضاً أراد به الاطلاع على باطن الديانة

المصرية ثم أنه تفرغ إلى حل المشكلات التي وقعت له أثناء طريقه ونظم البلاد المصرية ووزع القوة الحاكمة على جملة أشخاص خوافا من أن وضع أزمة الإدارة في يد واحدة ربما مال بها إلى جانب المطامع ثم أنه صمم على بناء مدينة يسميها باسمه ويأذن لليونان في سكنها وعقب ذلك بأيام قليلة رأى في منامه شيخا جليلا مهابا دنا منه وقال له شعرا مؤداه «أن جزيرة فاروس هي المنفردة بالشهرة من دون جميع جزائر البحار التي تحد بعض الجهات المصرية» فقام في الحال وذهب ليرى موقع تلك الجزيرة التي كانت عبارة عن لسان من الأرض كثير الطول ضيق العرض ثم أمر بتخطيط هذه المدينة بالدقيق فخطت فكانت أشبه شيء بالبرنس المقدوني وكان الإسكندر يتأمله وقد شمله السرور وعمه الفرح وما كادت ثمر ساعة من الزمن حتى رأى الحاضرون طيورًا مقبلة كالغمام انقضت على الدقيق فأكلته فتعجب الإسكندر من هذا الأمر وأظهر مزيد اندهائه منه فقال له من حوله إن المدينة التي أزمعت على بنائها ستكون كثيرة الخيرات غزيرة البركات سببا في معيشة عدد عظيم من الأمم المختلفة فلما سمع ذلك الإسكندر أمر المهندسين بالشروع في العمل وفي ربيع سنة ٣٣١ شرع إسكندر في المسير وبعد أن أقام الأعياد في مدينة ممفيس وفي صور اجتاز نهر الفرات بقرب مدينة طبرزاك وكان جيشه إذ ذاك مؤلفا من ٤٠٠٠٠ من المشاة و٧٠٠٠ من الفرسان ثم عرج نحو الجبل فعبر نهر الدجلة مارا بالجهة الشمالية من جيش الأعجام الذي كان واقفا لانتظاره بقرب خرابات نينوي.

وكان هذا الجيش معسكرا ببابل ثم انتقل إلى سهل أربل وكان مركبا من ٤٠٠٠ فارس و٢٠٠٠ عربية حربية وألوف من المشاة لا تقع تحت حصر وكان التصاف بين الجيشين مدينة غوغميلة فرتب الإسكندر جيوشه بنظامه المألوف

أي جعل برمنيون قائداً للجناح الأيسر واستلم هو زمام الجناح الأيمن وجعل خلف الجناحين فرقاً أخرى للمساعدة وقت الحاجة. أما العربات المتقدمة فلم تنفع بشيء حيث أن الجيوش المقدونية الخفيفة بادرت في الحال إلى إيقافها والاستيلاء عليها أما الجناح الأيمن من الجيش المقدوني ففاز بالظفر على الجناح الأيسر من العجم والجناح الأيمن من هذا الأخير الذي كان مركباً من أعجام وهنود وبرطيين أوقع بالجناح الأيسر من جيش الإسكندر الذي تحت قيادة برمنيون وكان الإسكندر بعد نصرته على الجناح الأيسر من الإعجام كما تقدم عرج على القلب حيث يوجد الملك داري فلم ير هذا الملك الجليل سوى الفرار ملجأً له ومخلصاً لحياته من مخالب الموت واقتفى أثره في هذه الخطة الذميمة جميع من معه من عساكر القلب ثم مال الإسكندر إلى الجناح الأيمن من الأعداء وبعد حروب طويلة اشتد ضرامها واستعرت نارها أظفره الله بهم ونصره عليهم وكان عدد القتلى من فرسان المقدونيين مساوياً بالتقريب لمثلهم من الأعجام ولكنه عند انهزام هؤلاء الآخرين ورجوعهم القهقري وضع الإسكندر السيف فيهم وقتل منهم ألوفاً عديدة (٣٣١) وكان داري قد التجأ إلى مدينة أكتان فدخلها القائد المقدوني مازه الذي امتاز بفتوته ونخوته في واقعة أربل بقرب بابل وتلته الجيوش المقدونية وما فعله الإسكندر في مصر مما ينطبق على إميل الأهالي فعله أيضاً في البلاد الآسيوية التي دخلت تحت حكمه وفي قبضة يده واهتم كذلك بحفظ الاعتقادات الأصلية وبقائها على حالها حرة ومما يثبت ذلك أنه أهدى الهدايا الجمّة إلى هياكل بابل وقرب أشرف الأعجام وأكابرهم من حضرته فاكتسب بذلك محبتهم له وميلهم إليه ومنحهم الرتب السامية وقلدهم إدارات بلادهم علماً منه بأنه لا يصح أن البلاد تحكم بمن هم

ليسوا من أهلها وقد أبقي مازه نظام السلطة الإدارية كما كان عليه من قبل في عهد حكام الأعجام غير أنه قسم تلك السلطة إلى حربية ومالية ونزعها من السلطة السياسية وكان مع كل رئيس عجمي مراقب له من الهيلينيين اليونان (٣٣١) ثم استمر الإسكندر سائرا في طريقه فاستولى على مدينة سوز وأخذ ما تحويه هذه المدينة من الكنوز التي أحرزها المتقدمون من الملوك وأرسل مالا إلى انتيباتر ليوافيه بالإمدادات العسكرية وليستعين بها على مكافحة أهل أسبرطه ويرسل المدد إلى آسيا فلما وصله المدد توغل في بلاد العجم وكان أريوبرزان على رأس جيش جرار فلم يعبأ به بل أخضع لسطوته رقاب الجبلين وأوقع الفشل والقتل في معسكر أريوبرزان المتقدم الذكر وغنم ما في المدن الملكية المسماة برسجاد التي بها قبر قيروش وبرسوبوليس وسراية العشميين ثم استراح فيها من تعب الحروب مدة أربعة أشهر في نهايتها حرق الإسكندر هذه السراية لغرض سياسي اختلفت آراء المؤلفين فيه وقد حاول داري أن يحشد جندا في اكتبان غير أن سرعة دنو الإسكندر منه ألجأه إلى الفرار إلى بقطريانه بعد أن هجرته بطانته وحققت عليه خاصته ثم وقع بأيدي كل من تبرزان وبسوس أحد ولادة بقطريانه فأراد بسوس أن يسلمه إلى الإسكندر في مقابلة تملكه على الجزء الشرقي من بلاد العجم فلما انتهى هذا الخبر إلى مسامع الإسكندر جد في المسير لبلوغ هذين الخائنين فلحقهما بخمسمائة من الفرسان وعثر في أنحاء طريقه على جثة داري ملقاة على الأرض مقتولا بيد بسوس وبموته دخلت المدن الأربعة وهي بابل وسوز وبرسوبوليس وأكتبان في أيدي المقدونيين وفي هذه الأثناء حدث ببلاد اليونان أمر ذو بال وهو أن أجيش ملك أسبارطه الذي احتل جزيرة كريد سنة ٣٣٣ جاهر بالعصيان على مقدونيا فقام

إليه انتيتر بجيش كثيف وقتله بقرب مدينة ميغالوبوليس (٢٣٠) ولما مات داري أراد الإسكندر أن ينتقم له من قاتليه فتهيأ جميع الحكام للدفاع وكانت هذه الحروب عبارة عن مواقع صغيرة وحصارات متعددة ومذابح متفرقة اضطرتة إلى فتح كل إقليم على حدته وكان سلوكه هذا المسلك من دواعي نجاحه لأنه لو كان قسم جيوشه على تلك النقط لعمل الحرب دفعة واحدة لما تسنى له الاستيلاء عليها بل ربما انكسر وعادت عساكره بالخيبة والويل وصار الإسكندر يترك في كل إقليم بفتحته الحرس الكافي لمنع الاضطراب وبث الأمن والراحة ثم أتى بعساكر مجمكة من المقدونيين واليونانيين وضم إليهم عددا عظيما من الأعجام وأصدر أمره من مدينة برسوبوليس أن تعمل القرعة العسكرية على ٣٠٠٠٠ من شبان الأعجام ليتعلموا حمل السلاح حسب القواعد المتبعة في الجيوش المقدونية وأول حرب حاربت فيه هذه الجنود هو حرب إقليم بقطريانه وكانت أغلب جيوشه على نهر الهندوس من المتوحشين والمتبررين وهذا مما يدل على أن التغيير الذي أحدثه الإسكندر ببلاد آسيا كان شديد التأثير بمعنى أن الإسكندر كان لا يصح اعتباره أنه ملك مقدوني الأصل تجشم الأخطار لمحاربة الأعجام بل أمير من أمراء آسيا أخذ يحمد نيران الثورة التي أسعرها الحكام وأرباب الغايات من كبار القوم ووجوههم وكان في معيته كثير من الأعجام منحهم الرتب الجليلة والمقامات السامية على أنه ما توجهت أفكاره إلى هذه الأعمال إلا وتحركت عوامل الحقد وثار غبار الحسد في قلوب المقدونيين خصوصا الأكابر منهم فإهم رأوا أنفسهم أنهم بعد أن كانوا مثل الملوك في العز والجاه والرفعة أصبحوا بدرجة من صاروا عبيدا لهم بحكم الغلبة ومما زادهم حنقا وغیظا أن حكام الأعجام كانوا إذا دعوا للمفاوضة مع

الملك في أي أمر كان ركعوا أمامه فلما رأى المقدونيون ذلك رأوا أنفسهم أجمل من أن يفعلوا ذلك فلذا تولدت الخصومات وبانت العداوات بين الأعجام وقواد المقدونيين الذي صاروا يغضبون على الإسكندر وصار الإسكندر يغضب عليهم خصوصاً إذا وشى المتزلفون في حقهم عنده ودبت إلى مهادهم عقارب السعاية فيتصدهم ويعمل على الإضرار بهم فلذا صارت القسوة قاعدة من قواعده وأسلوباً من أساليبه وأول من أصابتهم صواعق غضبه أكابر المتوظفين وأصحاب المقام من خاصته مثل مرميون وابنه فيلوتاس وذلك لأنهما تظاهرا على الملك بالعداوة وعارضا في كل ما كان يديه من المشروعات وكانوا لا يبالون به ولا يخشون من سطوته إذا تكلموا بحرية الضمير وكشفوا ما غطته المحابة بغطا الإلباس والتملق كأن ما أدوه من جليل الخدم وأودعوه من خالص الغيرة في واجباتهم حملهم على ذلك فكان سبباً لإيقاعهم في مهاوي الهلاك والموت حيث إنه لما طالت الأحوال على هذا المنوال اشتد تعب الملك وكثر قلقه وأيقن أن فيلوتاس المتقدم الذكر اتهم بخيانة وهي أنه علم بوجود عصبة عاملة على قتل الملك فتستر عليها ولم يخبره بذلك فجمع جيوشه للحكم عليه فدافع فيلوتاس عن نفسه غير أن أقواله ذهبت أدراج الرياح وصدر الحكم عليه بالقتل ثم قتل مرميون خوفاً من حدوث القلاقل والاضطرابات في الجيش أما كليتوس. أخ مرضعة الإسكندر الذي أنقذ حياة هذا الأخير من مخالب المنية زل لسانه يوماً فأخذ يمدح فيلبش ويشكر أعماله ويسخر بالملك ويبكت به وبأفعاله ويتأسف على كونه يفضل الأعجام على أبناء جنسه فلما زاد به الغضب والغيط قتله بضربة رمح فلما فاق من سكرته وانتبه إلى حالته عض على أنامله أسفاً ووقع في اليأس والقنوط (٣٢٨) وقتل أيضاً كلستين تلميذاً

أرسطاطابس وابن أخيه وكان قد شرع في كتابة تاريخ حياة الإسكندر والسبب الذي حمل الإسكندر على قتله هو أنه أدخل العبارات الخرافية في تاريخ ولادته وأبى أن يركع أمامه وأظهر العتو والتكبر وعزة النفس دعاة إلى ذلك ما رآه من ترك الملك عادات أجداده وتمسكه بعري العادات الفارسية فاندرج في سلك حزب الغرض منه قتل الملك فصار الاكتشاف في الحال على ما أضمره فكبل في الحديد وسيق إلى مقتله فقتل .

وقال بعض المؤرخين «للم يكن الغرض من جيوش الإسكندر إجراء الفتوحات فقط بل أيضا تنظيم البلاد التي استولت عليها هذه الجيوش ولذا كانت تحتوي على رجال أخر لسن القوانين وعمل النظام فكان المعسكر لذلك عبارة عن مركز إدارة عظيمة يرى فيها كبار الموظفين من المراقبين ورؤساء الخزائن ومديري الصحة العمومية إلى غير ذلك من التجار والعلماء ولما مات داريوس رأى الإسكندر أن لا فائدة في الحرب فأرسل القائد بسوس إلى بلاد بقطر وترك الجنود يتريضون في مدينة هكتومبيل ثم أخضع لصولته حاكم برطيانه وبرزان واريوبرزان وحاكم ارتباز الذي كان فيما سبق سفيرا في بلاط الملك فيلبش وكذلك اليونان المجمعين الذين ضمهم في الحال إلى عسكره ثم احتل إقليم هرفانيا المشهور بحسن موقعه على ساحل بحر قزوين وحدود بلاد إيران ثم أراد أن يقصد بلاد بقطريانه فمنعه عن ذلك جنوح أهل أريا إلى الثورة والشقاق فعاد إليها وقوض قيام الفتنة ودرس معالمها ولم يبارحها إلا بعد أن استتب الأمن فيها لعلمه أن بقاءها في حالة الاضطراب يؤدي إلى استقلالها ثم أسس هناك مدينة وسماها باسمه لا تزال إلى يومنا هذا مفتاح تلك الجهات وشيد مدينة أخرى تعرف الآن بغندهار ولم يمض النصف من شهر نوفمبر سنة

٣٣٠ حتى قضى الإسكندر على أزمة بلاد آريا وخراسان وأفغانستان وأنزل  
عسكره بسفح جبل الهندكوش واخترق في فصل الشتاء هذه الجبال الشاهقة.  
وبينما بسوس المتقدم الذكر يسعى في سبيل الاستقلال بهذه البلاد إذا فاجأه  
الإسكندر وحكم بصلبه ثم استولى على مدينة كيروبوليس والقلع السبعة  
وحين تركها الإسكندر تأججت فيها نيران الفتن غير أنه بحكمته وتدبيره  
وعزمه أخذ لهيبها. ولما هدد باله وصفاله الوقت تأهل بروكسان بنت أحد  
أغنياء تلك البلاد ولم يكتف بما فتحه من الممالك الواسعة بل قادته المطامع إلى  
فتح بلاد الهندوس فمكث ستين يباشر افتتاحها. وجيش في سنة ٣٢٧ جيشا  
مؤلفا من ١٠٠٠٠٠ مقاتل من المصريين والفينيقيين والعجم والأريانيين  
والبقطريين ليقوموا مقام الجنود التي تركها بمصر وبابل غيرها من المدن التي  
سمّاها باسمه. وفي ذلك العهد كانت بلاد بنجاب مقسمة بين جملة رؤساء  
أكبرهم شوكة يسمى بوروس فلما اضطّر هذا الملك لمقابلة الإسكندر أرسل  
إليه يخبره بأنه في انتظاره على حدود بلاده فقصده الإسكندر ووجده ضاربا على  
شاطئ نهر الهيداسب بجيوش لا تحصى و٣٠٠ فيل فعبر النهر ونصره الله عليه  
رغما عن كثرة جنوده ويعد أن تم له تملك تلك البلاد حاول أن يبعث همم  
عساكره إلى التوغل في وادي نهر الكانج فامتنعوا فلما رأى منهم ذلك وكادوا أن  
يجاهروا بالعصيان وجه الإسكندر التفاته إلى تحسين أحوال بنجاب وتنظيم  
أمورها وحينما فرغ من ذلك نزل في النهر ببعض من عساكره تقلهم ألف سفينة  
أعدت لهذا الخصوص يريد بذلك قطع نهر الهندوس لغاية البحر وإخضاع  
سكان شواطئ هذا النهر إليه وفي أثناء مسير العساكر على ضفتي النهر تحت  
أمره كل من كراتير وهفستيون قاومهم الأقوام المسمون بالماليين أشد مقاومة

حتى كاد أن يموت الإسكندر بما أصيب به من الجراحات البليغة ثم وصل بعد ذلك إلى ملتقى النهرين المسميين بالهيدسب والهندوس حيث بنى مدينة سماها باسمه وقصد إقليم بتاله بقرب مصبات نهر الهندوس. وهناك شيد ثلاث مدن سماها باسمه أيضا ثم دخل في الأوقيانوس الذي كان يجهل اليونانيون ما به من الأخطار الجسيمة المسببة عن المد والجزر ولما قاسى الأهوال في ذلك البحر عدل إلى المسير برا لغاية بلاد جدروزيا فسار في الفيافي والقفار مدة ستين يوما مات في أثنائها ثلاثة أرباع عسكره أما نيارك الذي كان أميرا على الدوننمه فتكبد المتاعب والمشاق حتى لحق بالملك في كرمانيا واستمرت الدوننمه سائرة إلى أن بلغت مصب نهر الفرات فدخل الإسكندر بلدة سوز وكان طول مغيبه عنها سببا لوقوعها في مخالب الفوضى لأن الحكام حنقوا على الأهالي وضربوا عليهم الضرائب الفادحة وصمموا على الاستقلال بمجرد وصول الأنباء إليهم حاملة موت الإسكندر ولما علم منهم ذلك أمر بقتل حكام كرمانيا والعجم وسوزيانا عن آخرهم وجميع من انحسرت فيهم هذه الشبهة وفي أثناء ذلك هرب الخازن دار هربال من بابل إلى أتينه ومعه ٥٠٠٠ تالان من الذهب.

ولما وصل الإسكندر إلى سوز (فبراير سنة ٣٣٥) أقام فيها الأعياد دلالة على انتهاء فتوحاته الجليلة وفي هذا العيد تزوج مائة من رؤساء المقدونيين بمئة من بنات أكابر آسيا وتزوج إسكندر باستاتيره بنت داري وهفستيون نديمه بأخت استاتيره وكراتير ببنت أخت داري وبرديكاس ببنت أتروباتس حاكم بلاد الميد وبطليموس اللاغيدي بسولوقوس بنت أرتباز وقد حذا هذا الحذو ١٠٠٠٠ من المقدونيين فلذلك سوخوا من دفع الضرائب وجميع ما يماثل ذلك ولتعميم الأفراح وإزالة الأتراح قام الإسكندر بوفاء ديون عساكره التي كانت

تبلغ ٢٠٠٠٠ تالان أي ١٠٠٠٠٠٠٠٠ من الفرنكات على أن هذه الإحسانات الحميمة والمكارم التي لا تقف تحت حصر كانت عقيمة العاقبة لأن الإسكندر لما أراد أن لا يفرق بين عساكر آسيا وعساكره وأن يجعل حرسه الخصوصي (أجيمًا) من عساكر آسيا بلغ بين المقدونيين مبلغه فنادوا بأن إتباع هذه الخطة موجب لفصم عرى الجيش واضمحلال أعضائه فدعاهم الإسكندر إلى السكون وعدم التظاهر بالتعصب ثم أعقب ذلك بتنفيذ ما صمم عليه فجعل حرسه الخاص من الأعجام وصرف حرسه المقدوني فاستباحه العصاة العفو فلبى ملتسمهم وغض الطرف عما سلف منهم وأولم لذلك وليمة شائقة وهب فيها لكل عسكري تالانًا واحدًا من النقود أي ٥٠٠٠ فرنك ثم صرفهم إلى بلادهم واتخذ بدلهم عساكر من أهل البلاد التي فتحها وتزوج الإسكندر بجملة نساء أسىويات وولد له من واحدة منهن لعلها روكسان وولد سباه إسكندرايغوس ولما عاد إلى بابل وجد بها رسلاً أتوا لتهنئته من جميع جهات الدنيا ثم أنه صمم على إجراء فتوحات جديدة وأعد لذلك المعدات الهائلة وكان في نيته أن يدور حول جزيرة العرب بحرا وأن يفتح بلاد إيطاليا لينتقم من أهلها الذين قتلوا صهره إسكندر ملك بلاد الأبيير وكان في إمكانه تنفيذ هذا المشروع لزيادة نظام عساكره المشاة عن نظام العساكر الرومانية.

وحدد ميعاد سفره في الحادي والعشرين من شهر دزيوس (يونيه) غير أن الحمى أصابته في السابع عشر من هذا الشهر وازداد به المرض مدة أسبوع وصار في حالة لا يرجى معها شفاؤه وكانت عساكره أنباء مرضه تنصرف شيئًا فشيئًا إلى أن فارقت روحه هذه الدنيا (شهر يونيه ٣٢٣).

وكان موت الإسكندر عنوانا على وقوع المشاحنات والمخاصمات التي أوفضت بعائلته إلى الدمار والخراب وبملكه إلى التوزع والانقسام وبلغ عدد المدن التي أسسها في مدة حياته ٧٠ مدينة صارت فيما بعد مستعمرات يونانية امتدت بسببها شوكة اليونان في جميع المشرق لغاية نهر الهندوس وكان الإسكندر سخيا كريما فمن أفعاله الحميدة التي تدل على ذلك تأسيسه جميع الهياكل التي هدمت في بلاد هيلاده بمصاريفه الخاصة ومنحه أرسطاطاليس مبلغ ٨٠٠ تالان أي ٤٠٠٠٠٠٠٠ فرنك مكافأة له على اكتشافاته في علم التاريخ الطبيعي.

وكانت نتيجة هذه الحروب انتشار التجارة وظهور فوائد الملاحة التي كان الإسكندر مشغولا بتعويضها وتقدم العلوم عقب وثوق عرى الارتباط والعلاقات بين المصريين والكلدانيين والهند فاتسعت بذلك دائرة المعلومات وكثرة الاكتشافات والاختراعات.

ومات الإسكندر وعمره ٣٣ سنة فقط وكانت عواطفه تميل إلى الكرم والخصال الحميدة إلا أنه كان يظهر الشدة والقساوة في بعض أعماله وكان لا يتحمل أن الغير يتكلم أمامه بالحرية وطلاقة اللسان كما فعل ذلك كلستين وكليتوس المتقدم ذكرهما. وقد أدى به حب الفخر والطمع في الشهرة والتظاهر بالفتوة إلى إدراك مشروعات هي إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة كتصميمه على فتح بلاد الهند وأفريقيا وغرب أوروبا وهو وإن لم ينل تحقيق هذه الأمانى غير أنه ذهب إلى بلاد لو تمكن من الدخول فيها جيش آخر غير جيشه لما أمكنه العود منها ولما بقي له أثر يذكر وهو الذي أسس المدن العظيمة والمباني

الجسيمة التي تدل على شدة عارضته وقوة إدراكه كإسكندرية وهراة وقد استحق بما اتصف به من علو الهمة وصدق العزيمة وثبات الجأش أن يبقى اسمه مخلدا على صفحات عقول الرجال عنواناً على الشجاعة والفتوة والكمال.



قبل أن مضى يومان من تاريخ زواج فيلبش بأولمبياس رأى هذا الملك أنه ختم على بطن امرأته بختم مرسوم عليه صورة أسد فأحضر المعبرين وقص عليهم هذه الرؤيا فارتابوا من أمر زوجته ونصحوه أن يراقب سلوكها ويباشروا سيرها فلما سمع ذلك أحدهم قام وقال إن هذه الرؤيا هي بخلاف ما سمعه الملك والحقيقة أن الملكة حامل ثم أيد مدعاة بقوله «حيث أنه لا يصح الختم على المراكب الفارغة فلا بد وأن أولمبياس تحمل في بطنها جنينا ستكون شجاعته مثل شجاعة الأسود».

وقد أظهر الإسكندر منذ صغره عواطف تدل على اعتدال شهواته وعدم ميله إلى انتهاب المسرات وضياع الأوقات وتثبيت شدة ولعه باكتساب الفخر والمجد.

واتفق أن سأل بعض أصحابه ذات يوم هل إذا كان يريد الذهاب إلى الألعاب الأولمبية لينال الجوائز وكان الإسكندر لا يعلق باله بتلك الألعاب فقال له إنني أذهب على شرط أن يكون أخصامي في الملعب الملوك الفخام والأمراء العظام.

وحدث أن أقبل من بلاد العجم جملة من الرسل في أثناء مغيب فيلبش فقابلهم الإسكندر بالترحاب ولم يتركهم برهة واحدة بل جلس معهم وخلق عقولهم بالفاظه الساحرة وآدابه الباهرة وطلب منهم أن يجيبوه عن أسئلة مهمة جدا كالمسافة التي بين مقدونيا وبلاد العجم والطرق الموصلة إلى الجهات السحيقة من آسيا وبحث عن منهم سلوك ملكهم مع رعيته وأطلع بواسطتهم على قوة الأعجام العسكرية وشوكتهم المالية وغير ذلك من الأسئلة التي بمجرد ما طرأت أذن هؤلاء الأعجام اعتقدوا أن مهارة فيلبش الذي كان يضرب بها الأمثال عندهم لا تعدل ذكاء ابنه وتوقد ذهنه. وكان الإسكندر كلما علم أن أباه فتح مدينة عظيمة أو انتصر نصره كبيرة يظهر الغم والحزن ويكي بكاء شديدا وقال لمن حوله من أصحابه «أصدقائي إن والدي لم يترك بلدة إلا واستولى عليها كأنه عاهد نفسه على أن لا يترك شيئا يكون لنا من ورائه الفخر وحسن الذكر في المستقبل».

واتفق أن أحدهم قدم إلى الملك فيلبش جوادا كريما طمعا في أن يبيعه إليه بمبلغ ثلاثة عشر تالانا فذهب الملك وبعض حاشيته إلى السهل يجربوا هذا الجواد فلما اختبره وجده حرونا شقيئا لا يقرب منه أحد إلا جمع وحرن وكان الإسكندر في جملة من حضر فقال لأحدهم «إن هذا الجواد لا مثيل له وهم يريدون فقده من أيديهم لما اعتراهم من الخوف وعدم خبرتهم بالركوب» فسمع فيلبش هذا الكلام ولم يجاوبه عليه من باب الإغضاء فكرر الإسكندر ما قاله مرة أخرى وأظهر أسفه من رجوع صاحب الجواد خائبا فقال له فيلبش «لماذا تقدر على أن لا تقدر على قود هذا الجواد» فقال إسكندر لاشك أني أقوده أحسن منهم فقال فيلبش «وإن لم

تفعل ما تقول فما يكون عقابك» فأجاب «دفع ثمن هذا الجواد» فلما سمع الحاضرون منه ذلك ضحكوا ضحكا عاليا ثم اتفق فيلبش مع ابنه بأن من يأتي الأمر على خلاف ظنه يكون ملزوماً بدفع ثمن الحصان فوراً فاقترب إسكندر من الجواد وقبض على زمامه ووجه وجهه للشمس لأنه علم أن جموع الجواد ناشئ من خوفه من خياله الذي كان لا يفارقه أينما سار وأخذ يواسيه بكلامه ويطبطن عليه بيده إلى أن هدأ وسكن وعند ذلك ألقى الإسكندر برنسه على الأرض ثم استوى على ظهر الجواد بخفة عظيمة ومهارة تفوق الوصف ولما استقر وتمكن ضيق عليه الزمام أولاً بدون أن يضربه وحينما رأى أن جموحه قد هبط وأنه يطلب الجري ضم فخذه وتركه يجري بسرعة عظيمة فأخذ العجب فيلبش وأرباب معيته حتى أنه لما رأوه عائداً صفقوا له استحساناً ومدحوه على شجاعته وبسالته أما فيلبش فقام إليه وضمه إليه وقال له «يا ولدي إن مملكة مقدونيا وما يتعلق بها من المستعمرات لا تكفيك فيجب عليك أن تبحث على ممالك أخرى تسع شجاعتك وتكون أهلاً لفضلك وفتوتك».

ولما تزوج فيلبش بكيلوباترا بنت أخت أتال وأقام لذلك العرس شرب أتال المذكور شرباً كثيراً حتى ضاع وعيه فانتصب قائماً وطلب إلى المقدونيين أن يسألوا الله أن يمنحهم من فيلبش وكيلوباترا خلفاً صالحاً وارثاً شرعياً أهلاً للجلوس على سدة البلاد المقدونية بعد فيلبش فلما سمع ذلك الإسكندر اشتعلت نار غضبه وغلت مراجل غيظه وقال لأتال «أيها الخائن الخادع كيف تعتبرني أني نسل الزنا ووليد الحرام» ثم رماه بكأس كان بيده فاستل فيلبش سيفه وقام إليه ليقتله عقاباً له على اجتراحه هذا الذنب الفظيع غير أنه وقع على الأرض قبل أن يلحقه فعند ذلك قال الإسكندر بملء صوته «أيها المقدونيين

انظروا إلى ملككم كيف سقط على الأرض طريحا حينما أراد الذهاب من مائدة إلى مائدة أخرى وحيث أنه يتهيأ للذهاب من أوروبا إلى آسيا بجيشه الجرار فكيف يصنع».

## البطالسة

ولما مات الإسكندر اجتمع حول سريره قواد جيوشه وخاصة أجبائه كبرديكاس وليونا وانتيباتر وليزيماك وبيطون وبوسست وبطليموس وتشيع كل منهم إلى تولية ولد من أولاد الإسكندر فتشيع برديكاس إلى الوليد الذي ستضعه روكسان بنت ملك بقطريانه ونيارك لابن برسبن بنت داري أما بطليموس فكان مشربه مخالفا لذلك حيث قال «ألم نقهر الأعجام وندرجهم في طي طاعتنا إلا لنضعهم بأيدينا على تحت البلاد المقدونية» ثم استصوب بعد ذلك تسليم قيادة هذه الممالك إلى يد مجلس مركب من أكابر قواد إسكندر ورؤساء عساكره وبينما هو يقول ذلك إذ سمع صوتاً من خلال الجمع يقول «أن من العدل أن يكون أريديه أخو الإسكندر وارثاً له وأن يلقب بفيلبش وهو اللقب الذي يتغزل فيه المقدونيون». وكان هذا القائل هو ملياجر فانضم في الحال إلى حزبه الذي كان عبارة عن جميع الجيوش المشاة وعمل على تأييد قوله وتنفيذ نيته فعارضه كل من بطليموس وبرديكاس وليونا والعساكر الفرسان ولكن لم تجد معارضتهم نفعا إذ ظهر أريديه متحلياً بالملابس الملوكية فبايعه أغلب الشعب وجميع العساكر المشاة ملكاً على مقدونيا وما يتعلق بها من المستعمرات ولما تم له ذلك سلم رئاسة الأقاليم والحمالات إلى ندمائه وضباط عساكره وبعد ذلك تفرغ إلى تحنيط جثة الإسكندر وكان قد مضى عليها سبعة أيام ولم يلحظها أحد بعين الاعتناء والاعتبار.

وفي هذا اليوم استلم بطليموس زمام مصر وليبيا وبلاد العرب المجاورة لمصر وكان يطلق على هذه الممالك اسم المملكة المصرية ولم تتناولها يد الانقسام كباقي الممالك الأخرى بل ضمت إليها بعض أملاك خارجية كجزيرة قبرص وغيرها بطريق الحرب وفي مدة مغيب بطليموس ببابل كان كليومين الذي نصبه الإسكندر حاكما على مصر قبل سفره منها يحكم بالنيابة عنه حين حضوره.

## بطليموس سوطر الأول به لاغوس

الملقب عند العرب بالمنطقي

حكم من سنة ٢٢٢ إلى سنة ٢٨٥ ق. م

كان من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وذوي الآراء الصائبة والتدابير السديدة منهم انتهز الفرصة في وقت السلم لتنظيم مدينة الإسكندرية وتحسينها فشيّد الهياكل العديدة والمباني المفيدة وأمال إليه قلوب المصريين وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منه بأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل الفضائل واجتناب الرذائل وخصص لسكناهم جزءاً من سرايته ومكاناً لحفظ مجموعات المؤلف النافعة التي تتضمن جميع العلوم والمعارف وسائر أنواع الآداب التي وصلت إليها عقول الأمم السالفة من الرومان واليونان والهنود والمصريين ويحكى عنه أنه ألف كتاباً ضمنه تاريخ فتوحات الإسكندر وهو الذي حقق أمانى هذا الفاتح في الإسكندرية فوطد شوكة هذه المدينة العظيمة ومنحها الأهمية التي لا تزال تتمتع بها إلى الآن ثم جمل لباسها بتشييد المباني العظيمة التي لم يبق منها أثر كالمجتمع المشهور باسم مدرسة الإسكندرية وفتح الطرق التجارية الموصلة إلى جهات الدنيا أما الفلكيون الذين نبغوا في أيامه فكانوا سبباً لتقدم علم الملاحة باكتشافاتهم المفيدة النافعة وأرصادهم التي وصلت إلينا كأرصاد الفلكي الشهير يثموخارس في سني ٢٩٥ و ٢٩٤ و ٢٨٣ قبل الميلاد وعهد بطليموس إلى كل من استراتون الشاعر وفيليتاس تهذيب ابنه بطيموس فيلادلف فأثمرت تربيتهم فيه وجاءت منطبقة على مرام أبيه.

ولما كانت السنة التاسعة والثلاثون من حكمه اهتم في توطيد الملك لبيته فتنازل عنه ليكون حلفه حاكما وهو على قيد الحياة وكان لبطليموس زوجتان رزق منهما بثلاث أولاد بواحد من أوريديس وبالأخرين من بنيريس ولقب الأول منهما فيلادلف والثاني أرغوس الذي قتل متها بتواطئه على الملك أبيه فطلب بطليموس من أصحابه أن ينتخبوا له ولدا من هؤلاء الثلاثة ليكون خليفته على ملكه ولم يكن من مقتضى لتلك الاستشارة إذ أن العادة الجارية كانت تقضي أن يكون ابن أوريديس هو ولي العهد بما أنه أكبر أخوته وهو أمر واضح ظاهر والذي ذكر الملك بذلك هو دمتریوس دوفالير فلم يقبل منه الملك تلك النصيحة وأراد أن يكون خليفته الأكبر من أولاد بنيريس ولما عقد عزمه على ذلك تنازل عن الملك له بدون حصول اضطراب لأن الأهالي كانوا يساعدونه دائما على تنفيذ ما يقترحه من الأفكار مهما خالفت العادات وضادت الشريعة وما ذلك إلا من حبه لهم وميلهم إليه لأنه قام بأعباء المملكة وتديرها قيام حزماء الملوك وفصلاتهم ولما كان له من الأمر والنهي وقود العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء وغير ذلك من الأعمال الجليلة التي بها أعاد لمصر بهجتها الأصلية ورونقها القديم فصار حقيقا بمحبة رعيته له لهذا الحد.

ولما تنازل عن الملك مال طبعه للوحدة وعول على الانفراد والعزلة فصار محفوا بالراحة والنعيم وصار يسمع اسمه مقرونا باسم الإسكندر الأكبر في الاحتفال العمومية والخطب الدينية.

## بطليموس الثاني فيلادلف أو فيلوزفوس به سوطر (من ٢٨٥ إلى ٢٤٧)

لما أدال الله تعالى له وصرف الملك إليه هبت فطنته إلى تأييد العلاقات بينه وبين الممالك الأجنبية ليكتسب معاهدتها ويفوز بمودتها خصوصاً الدولة الرومانية فإنه لما علم ما عليه عساكرها من التدرب على معاناة الطعن والضرب والثبات في ميدان الحرب عجل بتأسيس الصلات بينها وبينه وكانت هذه أول معاهدة حصلت بين حكومتي رومه والإسكندرية ومما يخلد لهذا الملك حسن الذكر وطيب الأحدثه تميم المباني الباذخة والهاكل الشاخنة التي كان أبوه شرع في تشييدها وتأسيس كل ما يكون الغرض منه المنفعة العمومية كورش الصنائع والمدارس العالية وغير ذلك ولئن بقي ذكر هذه الأعمال مخلد أمدي القرون العديدة إلا أن تاريخ إجراءاتها لا يزال مجهولاً لحد الآن.

ولم تشغل أعباء الحرب هذا الملك عن تعزيد الفنون والمعارف فإنه اهتم بالمكتبة واعتنى بشؤونها فزاد في كتبها عددًا وافراً حتى أصبحت رياض العلوم مزهرة وأشجار الحكمة يانعة مثمرة وبذلك كانت أيامه غرة في جبهة الدهر أو درة في تاج الفخر وقد حضر الملك سوطر في الاحتفال الذي صنّع إكراما وإجلالا لتتويج الملك فيلادلف وكان هذا الاحتفال في وسط شتاء السنة التي تلت تنازل الملك سوطر أي في أول سنة ٢٨٤ ق-م. ولما اختار هذا الملك ابنه فيلادلف خلفا له على عرش الملك ترك سيرونوس ابنه من أوريديس البلاط الملوكي قاصداً ليزيماك ملك تراسه لأنه لما رأى أن حقوقه التي تحوله الصعود

على سرير الملك بعد أبيه سوطر مهدورة لم يستطع البقاء مع هذا الملك وكانت ليزاندره شقيقة سيرونوس متزوجة بأغا طوقله بن ليزيماك من شقيقة فيلادلف فلما خشيت هذه الأخيرة أن ابنها يستعبد أولادها بعد موت والدهم عملت على إعدامه فنجحت في مشروعها ولم يبد زوجها أدنى إشارة تدل على انزعاجه من ارتكابها هذا الإثم الكبير ولما راع هذا الأمر ليزاندره أخت سيرونوس وأرملة أغاتوقله احتمت هي وأولادها وأخوها بسيلرقوس ملك الشام وأوزعت إليه أن يأخذ بثأرها ويحارب الملك بطليموس فأبي أن يشد أزرهم في تنفيذ هذه الاقتراحات نظرا لما كان بينه وبين هذا الملك من العلاقات الودية والعهود السلمية غير أنه عزم على محاربة ليزيماك وإفناء عساكره فلما نمت هذا الخبر إليه جيش الجيوش وذهب إليه طمعا في الهجوم ومات في أول موقعة ولم يتم لسيلوقوس الاستيلاء على مقدونيا لأنه لما ظفر بعدوه وقصد تلك البلاد قبله سيرونوس وفرق خزائنه على العساكر واستولى على مقدونيا.

وحينما علم بطليموس أن أخاه ترك بلاط الملك ليزيماك أرسل إلى هذا الأخير يخطب منه ابنته أرسينوه ولما مات أبوه سوطر لم يبرح عن فكره ما قاله الفيلسوف دمتريوس دوفالير إلى هذا الملك عندما طلب منه إبداء رأيه في تعيين خليفة له فنفي هذا الفيلسوف الحكيم إلى بلاد لم يكن ليقوى على تحمل ما رآه فيها من العذاب وفي سنة ٢٨٢ أتت أرسينوه إلى مصر فتزوج بها فيلادلف وكان قد تم سوسترات بناء المنارة التي استغرق بناؤها اثنتي عشرة سنة ويحكى أنه لما أبى أن يأذن لسوسترات بوضع اسمه على المنارة تذر سوسترات من ذلك ونقش اسمه عليه غير ملتفت إلى أوامر الملك إنما وضع عليه طبقة من اللبن مؤملا أن اسمه ينكشف للخلف بعد زوال هذه الطبقة

وبعد مضي سنتين من هذا العهد أرسل سيرونوس ملك مقدونيا إلى أخيه فيلادلف رسلا يقولون له أن سيرونوس احتراماً لسيرة أبيه قد نسي الذنب الذي ارتكبه هذا الأب بحرمانه من وراثة الملك بعده ثم مات بعد ذلك بثلاثة أشهر فلم يصله جواب أخيه وربما كان تلقيب بطليموس بفيلادلف (أي بحب أخوته) من باب التهكم والسخرية لأنه أمر بقتل أخيه أرغوس وميلياجر الذي كان في جزيرة قبرص لما نسب إليها من حض الأهالي على رفع لواء العصيان وكذلك أساء معاملته زوجته أرسيوه بنت ليرياك إما لأنها حاولت الإيقاع به وإما لما أكتته من الضغائن والحقه لأرسينوّه الأخرى أرملة ليرياك وأخت فيلادلف وإما لأن هذا الأخير أسرت قلبه محاسن أخته فهجر الأخرى هجراً قاسياً ثم طلقها ونفاهها بمدينة قوموطوس من صعيد مصر وكان قد رزق منها بنت وولدين ثم أنه تزوج بأرسينوّه أخته من أبيه وأمه وهذا بصدد ما أتت به النصوص الشرعية والقواعد الدينية وقد أمر بنقش اسمها وصورتها على النقود ومات في آخر شتاء سنة ٢٤٧ بعد أن حكم ٣٨ سنة.

## وصف الاحتفال المتقدم الذكر

ولمناسبة تتويج هذا الملك حصل بالإسكندرية احتفال شائق لم تر هذه المدينة لحد الآن حصول ما يماثله فيها وقد رأينا من المستحسن أن نورد وصفه مقتبسا من تاريخ الإسكندرية تأليف كليكسين الردوسي فنقول إنه بعد أن وصف الصيوان الملكي الذي نصب لهذا الخصوص بأنه كان مزينا بالذهب والفضة والأحجار الكريمة والسجاجيد العجمية النفيسة أخذ يصف سير هذا الاحتفال فقال:

«وكان يرى في مقدمته رايات الطوائف الدينية المختلفة وغيرهم من أصحاب الوجاهة والأعيان اليونانيين يتلون بعضهم بعضاً كل فريق على حسب مقامه وما امتاز به من الرتب وكان أغلب هؤلاء البوفان على عربات تجرها الجياد الصافنات وكان الكهنة والكاهنات يؤدون ما عليهم من الواجبات الدينية كالصلوات والأدعية ثم يلي ذلك جميعه عربة أخرى بأربع عجلات عرضها ثمانية أذرع ويجرها ستون رجلا وفوق هذه العربة تمثال ارتفاعه ثمانية أقدام عليه برنس أصفر منسوج بالذهب وكانت هذا التمثال يسكب اللبن في الكاسات ويفخم به الأواني العسجدية وفي يده اليسرى ترس منقوش الأطراف وعلى رأسه تاج من الذهب الخالص مصنوع بشكل العنب ومرصع بالأحجار الكريمة.

ثم يتبع ذلك عربة أخرى بأربع عجلات طولها ٢٠ ذراعا وعرضها ستة عشر يجرها ٣٠٥ رجل وهي تحمل معصرة عنب يباشر إدارتها ستون من

القينات الحسان وجميعهن دائبات على عصر هذا الثمر مع الترتم بألحان وأغاني تطرب السامعين وكان النبيذ ينسكب من جانبي العربة مدة مسير المحفل.

وبعد هذا القسم كان يرى الحاملون للأواني الذهبية على اختلاف أنواعها وتباين أشكالها والخزانة المحتوية على المشروبات والمرطبات وكان يتبع ذلك ١٦٠٠ طفل لابسين برانس بيضاء ومتوجين بالأزهار ومنهم ٢٥٠ لحمل القماقم الذهبية و ٤٠٠ لحمل المباخر الفضية و ٣٢٠ لحمل أشياء آخر ذهبية وفضية ثم يلي ذلك باقي الأطفال وبأيديهم آلات المدام التي كانت عبارة عن ٢٠ من الذهب و ٥٠ من الفضة و ٣٠٠ من باقي أنواع المعادن ولا يحمل بنا أن ننس العربدة العظيمة ذات الأربع عجالات التي كان طولها ٢٢ ذراعاً وعرضها ١٤ ذراعاً ويجرها ٥٠٠ رجل فإنه كان على هذه العربدة ما يئائل مغارة كبيرة مدهونة الخارج بلون أحمر وكان يظهر من هذه المغارة أثناء الطريق أنواع الطيور كالحمائم واليمام وهي مقيدة الأرجل بخيوط طويلة حتى يتسنى للمتفرجين الاستيلاء عليها وكان بهذه المغارة ينبوعان ينمط من أحدهما اللبن ومن الآخر النبيذ وكانت جميع العذارى التي تحيط بهذه العربدة متوجات الرؤوس بالأكاليل الذهبية ثم يي جميع ذلك عربة وعليها صورة أجهزة الإله باكوس (إله الخمر عندهم) عند عودته من بلاد الهند وكان هذا الإله متربعا على فيل جسيم الجته ولا بسا ثوبا أحمر قاني وتاجا من الذهب وماسكا بيده ترساً من ذهب وحذاء مذهباً أيناً وكان على رقبة الفيل غلام متوج بورق الصنوبر من الذهب ويده اليمنى قرن ماعز يشير بها إلى جهة من الجهات وكانت جميع الأدوات التي على ظهر الفيل مصنوعة من الذهب وحول رقبته غصن شجرة من الذهب كذلك.

ثم يتبع ذلك من الحاشية ٥٠٠ جارية مؤنترات بالبرانس الحمراء ومنطقات بمناطق من الذهب وأما الجواري اللاتي كن أمامهن ويبلغ عددهن ١٢٠ جارية فكان على رؤوسهن تيجان من الذهب على شكل ورق الصنوبر وكان وراءهن ١٢٠ غلاما متسلحين بأسلحة البعض منها من فضة والبعض الآخر من التوح.

ثم يلي ذلك من الأحمر عدد عظيم منقسم إلى خمسة أقسام يركب عليها غلمان متوجون وكانت سروج هذه الأحمر من الذهب والفضة ثم يأتي بعد ذلك ٢٤ عربة تجرها الفيلة الكبار و١٦٠ أخرى تجرها الجدي وأخرى تجرها حيوانات متنوعة غريبة الشكل والصورة وكان يوجد سوى ذلك عربتان يجر واحدة منهما نعامتان وعربات أخرى يجرها حمر الوحش وكانت هذه العربات تحمل غلمانا ملابسهم كملايس ساقه العربات الملوكية وعلى جانبيها غلمان آخر أصغر سنا من هؤلاء وهم متسلحون بالتروس والمزاريق وعليهم الملابس المنسوجة بالذهب والفضة.

ثم ظهر للناظرين بعد ذلك جملة عربات يجر كل واحدة منها جملان وآخر تجرها البغال وكان فوق هذه العربات أنواع من خيام الأمم الأجنبية المختلفة وكان يرى فوق هذه الخيام نساء هنديات كالسبايا وكان من الجمال المتقدمة الذكر ما يحمل ٣٠٠ قطعة من المواد اللازمة للبخور وما يحمل ٢٠٠ رطل من الزعفران وغيره من الأشياء العزيرة الوجود وبجانب هذه الجمال حبشان يحملون الهدايا الآتي ذكرها وهي ٦٠٠ سن من أسنان الفيل و٢٠٠٠ كتلة من الأبنوس و٦٠ قطعة من الذهب والفضة ومن السبائك الذهبية ثم بأن بعد

ذلك اثنان من الصيادين وبأيديهما سهام من الذهب ووراءهما ٢٤٠٠ كلب متضاربة الأشكال مختلفة الأنواع منها ما هو من بلاد الهند ومنها ما هو من بلاد هرقانيا ومر عقب ذلك ١٥٠ رجل يحملون أشجارا متنوعة وعلى أغصانها أنواع الطيور التي تطرب السامعين بحسن نغمها ورقة تغريدها ثم أعقب ذلك أقوام يحملون على رؤوسهم أقفصة من الذهب فيها أنواع البيغا والطواويس والديوك البرية وهي تصيح بأصواتها المختلفة وتجذب النظر لجمال منظرها.

وبعد أن أفاض المؤلف في الحديث على أشياء أخر أطنب في شرح أوصاف أنواع الحيوانات كل نوع على حدته فقال: وكان يوجد سوى جميع ما سلف ١٣٠ كبشا من الحبشة و ٣٠٠ من بلاد العرب و ٢٠ من جزيرة النجريون (من جزائر الأرخيل) و ٢٦ كبشا أبيض من بلاد الهند وثمانية مثلهم من بلاد الحبشة ودب أبيض كبير وستة عشر نمرا وأربعة عشر فهدا وظرافة وكركدن.

ثم بدا أثر ذلك عربة أسفر من ورائها جملة نساء متحليات بأحسن الملابس وأحلى الحلل وكانت تسمى كل واحدة منهن باسم بلدة من بلاد اليونان الأصلية أو البلاد اليونانية الموجودة في آسيا وكانت تحت حكم الأعجام وعلى رأس كل واحدة منهن تاج من الذهب.

وما أتينا على شرحه الآن من أحوال هذه الاحتفال ليس إلا قطرة واحدة من بحر الوصف الكلي الشامل له لأن المؤلف كليكسين الذي بني وصفه هذا على دعائم المشاهدة وليس العيان لم يشرح من هذا الاحتفال إلا ما كان الذهب أو الفضة داخلا في تركيبه على أنه كان يوجد أشياء أخر لا تقع تحت حصر

تستجذب الفكر وتستلفت النظر كالخيول الكريمة والحيوانات المفترسة من أسود وغيرها.

وكان يرى بعد ذلك ٦٠٠ رجل منهم ٣٠٠ من الموسيقيين وكانت الفياتير وآلات الغنا التي بأيديهم مصنوعة من الذهب والتيجان التي على رؤوسهم من هذا المعدن كذلك ثم مر بعدهم ٢٠٠٠ ثور من لون واحد وقدر واحد وقرونها وجباهها مصفحة بالذهب وكان بين قرني كل واحد تاج وعقد من الذهب الخالص أيضا ثم أعقب ذلك سبعة نخيل ارتفاع كل واحدة منها ٨ أذرع وهيكل صغير محيطه ٤٠ ذراعا والكل من الذهب وكان يوجد خلاف ذلك عدد عديد من التماثيل الذهبية التي كان يبلغ ارتفاع الواحد منها ١٢ ذراعا وحيوانات أخرى متوحشة تفوقها كبرا وتربو عليها علوا كالنسور التي كان يبلغ ارتفاع الواحد منها ٢٠ ذراعا وكان يوجد سوى جميع ما تقدم ٣٢٠٠ تاج من الذهب من ضمنها تاج محيطه ٨٠ ذراعا مرصع بالجواهر النفيسة والأحجار الكريمة وهو خاص بالاحتفالات الدينية والأعياد المذهبية ثم أسفرت بعد ذلك بدور جملة جوار لابسات أحسن الملابس والحلل وحاملات تيجانا من الذهب يبلغ ارتفاع أحدها ذراعا ومحيطه ستة عشر ذراعا ولا يجمل بنا أن ننسى الدرع الذهبي الذي كان طوله ذراعا والتاج الذي كان على شكل ورق الصفصاف وكان مرصعا بالجواهر والأحجار النفيسة وأن نحمل ذكر العشرين ترسا التي كانت مصنوعة من الفضة والستة وأربعين سلاحا والأحذية الذهبية التي كان طول الواحد منها ثلاثة أذرع والاثني عشر حوضا المصنوعين من الذهب كذلك والكاسات التي لا تقع تحت حصر والستة وثلاثين قدرة المملوءة بالنبيذ والخمسين سبتا المشتملة على العيش وغير ذلك

من الموائد المختلفة والخزانات المحتوية على الأواني الذهبية والقرن الذي طوله ٣٠ ذراعاً ومما لو تصدينا إلى شرحه لخرجنا عن موضوع الكتاب.

ثم يتبع جميع ذلك ٤٠٠ عربة تحمل الأواني الفضية وعشرون تحمل الأواني الذهبية و٨٠٠ المواد العطرية وبالاختصار فكان جميع هذا الموكب محفوفاً بكوكبة من الفرسان والمشاة المسلحين بالأسلحة الذهبية وكان عدد المشاة ٥٧٦٠٠ والفرسان ٢٣٢٠٠.

## بطليموس الثالث أفرجيطة الأول أو أوراخيطةس (من ٢٤٧ إلى ٢٢٢)

هذا الملك هو ابن بطليموس الثاني فيلادلف وأرسينوه بنت ليريماك ولما تزوج فيلادلف بشقيقته أرسينوه اتخذت هذه الأخيرة ابن ضرثا ابنا لها ولذلك لما تولى أفرجيطة وقام بالأمر بعد أبيه لم يقع شيء من الاختلال الذي يحدث غالبا في مثل هذه الأحوال.

وكان حكم هذا الملك على الديار المصرية بشير فلاحها وسفير نجاحها إذ أخذ يعبي الذخائر ويجهز الجيوش التي نشرت ألوية سطوته ورفعت أعلام شوكتها في بلاد آسيا فاستولى بها تدريجا على الأقاليم الموجودة بالشاطئ الأيمن من نهر الفرات ثم جد يتوغل في البلاد التي وراء هذا الإقليم ففتح بابل وسوزيانا والعجم وأخذ يخرب الحصون ويدمر القلاع حتى أناخ على بقطريانه وقد سر عموم المصريين من هذه الفتوحات خصوصا من فتح بلاد العجم لأنه استرجع لهم ما سلبه الملك قميمز من هياكل المدن الموجودة على شاطئ النيل أيام كانت هذه البلاد تن من شدة الضيق واللاوى في عهد هذا الملك الجائر وفي أيامه أذعن له ملك الشام بالطاعة وأدى له الإتاوة.

وقد تقدمت العلوم في أيامه تقدما حثيثا حتى أنه انهمك على اقتناء الكتب النفيسة وكان يشتريها بدون نظر إلى غلاء ثمنها وارتفاع سعرها ومن اشتهروا بالمعارف والعلوم في أيامه كاليماك وليكوفرون وأبولونيوس وكنون وأريسطارق وأرسطوفانس الذي خلف زينودوت في وظيفة أمين لمكتبة خانة

الإسكندرية وكان أرسطولس وكنون وتيموخاريس منكيين على تدريس العلوم الفلكية ووضع أريسطارق القواعد الأولى من هذا الفن وقال بحركة الأرض فلذا أتهم بالكفر وقله الديانة وقله الديانة أما أبوللونيوس فقد أحنى على ذكر من سلفه من الرياضيين بما أعجز به أهل عصره من الاكتشافات الرياضية ومات أفرجيطه بعد أن حكم ٢٥ سنة قضاها في نشر العلوم وتعصيد المعارف.

وقد وجد بمدينة أدوليس من بلاد الحبشة حائطاً مكتوباً عليه ما يأتي أن الملك الأكبر بطليموس بن بطليموس بن أرسينوه وحفيد الملك بطليموس والملكة بنيريس الإلهة السوطيين الذي هو من نسل هرقل الجبار بن المشتري (من جهة أبيه) ومن نسل ديونيزوش بن المشتري (من جهة أمه) قد تبرع في دست الملك بعد أبيه وصارت بلاد مصر وليبيا وسوريا وفينيقيا وقبرص وليسيا وكاريا الخ في قبضته وحوزته وقصد بلاد آسيا بجيش جرار من المشاة والفرسان برا وبحرا وبالفيلة المجلوبة له من بلاد الحبش بأمره وبأمر أبيه ودر بها بمصر على الحرب والكفاح فكانت أقوى عضد له على الاستيلاء على الجهات المجاورة لنهر الفرات وبلاد سيلسيا وبامفليا ويونيا وهلسبون وتراسه وحياسة أموال هذه الممالك وأفيال بلاد الهند.

ثم أخضع لسلطوته رقاب الملوك الحاكمين على هذه البلاد واجتاز الأنهار فتغلب على الجزيرة وبابل وسوزيانه والعجم وميديا ثم أخذ ما سلبه الأعجام أيام حكمهم بمصر من الآلهة والأشياء المقدسة وأرسل ذلك كله إلى مصر مع الكنوز التي أخذها من تلك البلاد.

## بطليموس الرابع فيلوباطور (محب أبيه) (من ٢٢٣ إلى ٢٠٥)

كانت بلاد الشام في أيامه تابعة لمصر فلما رأى أنطيوخوس ما عليه بطليموس من الانهماك على الشهوات والاشتغال باللذات أراد نزاعها من يده وحينما سمع بذلك بطليموس ترك مدينة منفيس وقصد مدينة بيلوز (بقرب بورسعيد والعريش) بجيشه وأمر بفتح الترغ ليغرق خارج هذه المدينة ظنا منه أن ذلك من أعظم وسائل الدفاع فلما وصل هذا النبأ إلى أنطيوخوس عدل عن مهاجمة بيلوز واكتفى بالاستيلاء على الجهات المجاورة لتلك المدينة وإخضاع المدن السورية بالقوة أو بالحيلة ولم يتمكن بطليموس من إعاقة هذه البلاد بسبب سوء تدبير وزيره سوزيب وأشغال قلبه بمحبوبته أغا طوفله وبعد مضي سنة كان أنطيوخوس فيها مشغولا بفتح بلاد العرب خرج بطليموس من الإسكندرية على رأس جيش جرار مركب من ٧٠٠٠٠ رجل من المشاة و٥٠٠٠ من الفرسان و٧٣ فيلا قاصداً بيلوز وهناك وزع الميرة على عساكره ثم حط بهم على بعد ٥٠ استاده من رافيا ولم يمضِ قليل من الزمن إلا وأتى أنطيوخوس بخيله ورجله وعسكر قبال بطليموس على بعد ٥ استادات منه ولما استعرت نيران القتال انهزم أنطيوخوس وفر هارباً إلى أنطاكية ومن هناك طلب الصلح من ملك مصر فأجاب بطليموس ملتصمه وأناط بوزيره سوزيب سن شروط هذا الصلح لمدة سنة واحدة ولما سر بطليموس من الاستيلاء على سوريا وفينيقيا مضى بها ثلاثة أشهر لينظم إدارتها ويرتب أحكامها ثم عاد إلى الإسكندرية وكان كثير اللهو واللعب منقطعاً إلى ذلك مشغولاً به عن تدبير

مملكته فسلم زمام الحكم إلى وزيره سوزيب وأخذ يعمل لوجهته غير ملتفت لما أصاب الرعية من سوء الحال والظنك والاضمحلال.

ومن أعماله السيئة قتله امرأته وأخيه بناء على إشارة وزيره الذي سعى في حقه لدى أخيه بأنه يتألب مع الجنود المجرمة للإضرار به وأمر بقتل أمه وقتل أيضا كليومين ملك اسبارطه الذي حظي بالإكرام والإجلال من أفريقيطه والسبب في قتله هو أنه بينما كان بطليموس في احتفال ديني للإله سيرابيس أراد كليومين أن ينير خواطر أهل الإسكندرية ضد الملك غير أنه لم يبلغ منتهى إربه بل صار القبض عليه هو وأحزابه ولم يجد معهم موردا سوى الموت ولم يكتف بطليموس بذلك بل بلغ به الحنق أن أمر بصلبه ويذبح أمه وامرأته وأولاده بالقرب منه.

ومات بطليموس غير مأسوف عليه من أحد وقد أخفى أصحابه في الملاهي وندماؤه في الشهوات خبر موته كي يتمكنوا من نهب خزائنه واقتسام ممالكه.

## الملك بطليموس أبيفان أوفينفوس (من ٢٠٥ إلى ١٨١)

انتهى الأمر إليه بعد موت أبيه وكان عمره لا يبلغ خمس سنين ونصف وفي مدة كفالته استرد انطيوخوس ملك الشام جميع الأقاليم التي افتتحها فيلوباطور عنوة ثم وهبها مهرا لابنته في يوم زفافها بابيفان سنة ١٩٣ وفي السنة الثامنة عشرة من حكم هذا الأمير اختلت الأمور وارتبكت الأحوال وتفاقم الفساد بسبب سوء تصرف من بيدهم أزمة الأحكام وما طراء من المصائب والضنك على الأنام الذين رأوا من الإجحاف بحقوقهم ما أداهم إلى التعصب وخلع ربة الطاعة من عنقهم ففشيت الفتن وعمت المحن واضطربت الأحوال وساء المآل ولم يزل الأمر كذلك حتى استؤصلت شأفة هذا الاحتلال بموت الملك أبيفان مسمومًا في شتاء سنة ١٨١ ولما اعتلى هذا الملك أريكة الديار المصرية أصدر من مدينة منفيس المنشور الآتي إلى أفراد الأمة المصرية.

### المنشور

في ١٠ أمشير من السنة التاسعة حضر إلى منفيس كافة رؤساء الدين وكل من صرح له بالدخول في المحل المقدس لتلبس الآلهة وذلك للاحتفال بتتويج الملك بطليموس الدائم الحياة محبوب فتاح الإله الأبيفاني وجلسه على أريكة الملك وعندما تم الاجتماع وانتظم عقده صدر المنشور الآتي وهو:

من حيث إن الملك بطليموس الدائم الحياة محبوب فتاح الإله الإبيفاني... الخ قد بذل جهد المستطیع في جلب أنواع الخير إلى الهياكل وصرف المبالغ

الجسيمة لخدمتها ولم يدع وسيلة في عمل البر والإحسان إلا أجراها حتى صارت في أيامه الشعوب عموماً ورعاياه خصوصاً متمتعين بالبركة والخصب والرفاء يمرحون في رغد العيش فقد اقتضت رأفته العظيمة ومراحمه التي لا تقع تحت حصر إلغاء بعض الضرائب وتخفيف البعض الآخر... الخ وإطلاق سراح المسجونين مرتكبي الجرائم الكبيرة الذين حكم عليهم بالعقوبات الشاقة.

وقد صدر أمره أيضاً بإبقاء المصاريف المقررة سنوياً لخدمة الهياكل على ما هي عليه نقوداً كانت أو غللاً وكذلك ما يخص الآلهة في الكروم والبساتين وجميع ما لهم الحق فيه من أيام والده وإعفاء القبائل القسيسية من السفر إلى الإسكندرية بطريق البحر.

وإن كل من نبذ أوامر الحكومة وشق عصا الطاعة وانتمى لأرباب التعصب والشقاق ومن كان معارضا لمنهج الحكومة فانقلب مذعناً لأوامرها متقاداً إليها يرد إليه ما اغتصبته الحكومة من أراضي وأملاكه ولا يُجرم منها قط بل يكون له الحق بالتمتع بها.

ثم إنه لكون دخوله مدينة منفيس إنما هو بصفة أخذ بثأر أبيه ومسئول من بعده على تاج المملكة فتطيباً لخاطره ودرءاً للمفاسد قد عوقبت الرؤساء الذين كانوا في عهد أبيه يثنون الفتن والدسائس ويحرضون الناس على النزوع إلى الاضطراب وذلك بمقتضى القوانين وعلى حسب قدر جرائمهم.

وبما أنه قد أهدى الهدايا الفاخرة النفيسة للإله أبيس والإله منيفيس وسائر حيوانات مصر المقدسة حتى سرت الكهنة من هذه الأعمال الخيرية فقد أوجب هؤلاء الكهنة على نفوسهم زيادة التعظيم والتبجيل اللاتقين بمقام الملك بطليموس الدائم الحياة محبوب فتاح الإله الأييفاني وقد أمر أن يشيد تمثال بصورته في كل هيكل وبوضع بحيث يراه الزائرون وأن يجعل له تمثال مذهب ومحل للصلاة كذلك في أعظم الهياكل المقدسة وأن يصير الاحتفال كل سنة بعيد يمكث خمسة أيام مبدؤها أول شهر توت وأن يضع المنوطون بإجراء القرايين وإهراق النبيذ تيجانا على رؤوسهم ما دام هذا العيد قائما.

ومن الواجب نقش هذا المنشور على أعمدة من الأحجار الصلدة بالحروف المقدسة أو الحروف اليونانية وتحفظ هذه الأعمدة في هياكل الدرجة الأولى والثانية والثالثة الموجودة بالقطر. آه

وقد عثر بعض مهندسي الفرنسيين في سنة ١٧٩٨ م على أحد هذه الأحجار بقرب مدينة رشيد فكان هذا الحجر سببا لكشف أسرار الكتابة الهيروغليفية.

## بطليموس السادس فيلوميتوراي محب أمه (من ١٨١ إلى ١٤٦)

كان حديث السن حين تولى الملك ومن ثم كانت أمه كيلوباترا تباشر أعمال المملكة بدلا عنه إلى أن يفع وترعرع وبلغ أشده ولما استلم زمام الأحكام ومضى من حكمه إحدى عشرة سنة شبت نيران الحرب بين مصر وسوريا فانهزم المصريون فيها وكان محل الواقعة بين مدينة بيلوز وجبل كزيوس وانجلت عن أسر الملك بطليموس وفي أثناء أسره بايع أهل الإسكندرية أخاه أفرجيطة درءا للفتن التي تحدث غالبا عند خلو كرسي المملكة.

وبعد مضي أربع سنين انجلى ملك الشام عن مصر بعساكره وأطلق سراح الملك فيلوميتور فعاد إلى الإسكندرية وشارك أخاه في الحكم حولين كاملين ثم رضى أفرجيطة أن يكون مطلق التصرف في بلاد ليبيا وأن ينفرد أخوه بالحكم على مصر كما كان وذلك بسبب تداخل الرومانيين الذين منعوا السوريين من الإغارة على مصر مرة أخرى وبعد مدة ثار الخصام بين الأخوين واشتدت العداوة بينهما فأخذا يتحاربان مدة أربع سنين أعقبتها هدنة هجم الملك فيلوميتور في خلالها على سوريا واستولى عليها ثم مات وكانت مدة حكمه ٣٥ سنة.

## بطليموس السابع أفرجيطة الثاني أو أوراخيطةس (من ١٤٦ إلى ١١٧)

حينما علم هذا الملك بموت أخيه انتهز الفرصة وبارح مدينة شيرين بجيش جرار قاصداً مدينة إسكندرية حيث قتل ابن أخيه وتولى الملك بدلا عنه وكان هذا أول ما أتاه من المنكر واجترحه من المآثم والمظالم التي طالما وقعت منه وكان يفتخر بعملها ومن ذلك أنه بينما كانت أهالي مدينة منفيس محتفلة بعيد ميلاد بكرانجاله أمر بقتل جملة أشخاص من السيريين الذين رافقوه إلى مصر حيث بلغه أنهم كانوا يتحادثون فيما بينهم بشأن الملك ومحبة له تسمى إيرين وما زال سالكا برعاياه سبيل الجور والاعتساف مدة ١٥ سنة حتى هموا بالخروج عن الطاعة ومالوا إلى بث الثورة والشقاق فلما توسم منهم ذلك وعلم أنه ناتج مما يجريه من الظلم والجور فر هاربا من الإسكندرية وحشد جنودا من الخارج بقصد تأييد ملكه فأظهر المصريون عند ذلك ما كمن في صدورهم من الحنق والحقد عليه فأخذوا يكسرون تماثيله وبدلوا اسمه بكاكر جيطة ومعناه المسيء الضار ليطابق الاسم المسمى.

ثم أن أفرجيطة عاد ثانياً إلى الإسكندرية واستولى على زمام الملك بجيوشه المجمعكة ومن هذا الحين تغيرت أطواره وتحسنت أخلاقه وسلوكه بالبرية مسلكا حسنا وأخذ يوطد الأمن في أنحاء ممالكه مثابراً على الاشتغال بالعلوم والفنون حاثا على التمسك بأذيالها والتعلق بأسبابها وتوجيه الهمم إليها لما رآه من إهمال الجمهور لها وعدم إقباله عليها واستدعى أهل العلم والصنائع وقابلهم من لدن مكارمه بأحسن قول وأسبغ عليهم جزيل نعمائه وأخذ يغترف

من بحار علمهم ويرتشف من جداول معلوماتهم رحيق المعارف وسلسلة  
الأدب والحكمة حتى ارتوت نفسه الأدبية من ذلك واستحق أن يُعد من أكابر  
عصره علما وفضلا.

## بطليموس النامه أولاطير

(من سنة ١١٧ إلى سنة ١٠٧)

كان هذا الملك في جزيرة قبرص حين مات أبوه وأُستدعى للجلوس على أريكة الديار المصرية فلما علمت بذلك أمه كوكس وكانت يافعة مشهورة بالطمع وإلقاء الفتن والاضطراب انتهزت الفرصة فأشاعت أنه يريد قتلها وحرضت عليه أهل الإسكندرية وعرضت كثيرا من أتباعها وحاشيتها على العالم مصابين بجراحات عديدة طمعا فيما هي مزمعة عليه من التخلص الملك لها ولما رأى ذلك أهل الإسكندرية أخذتهم الشفقة عليها فقاموا لتعزيدها على قدم واحد فاضطر الملك أن يعود إلى قبرص هربا مما عساه أن يقع راضيا من الغنيمة بالإياب.

## بطليموس السابع إسكندر الأول

ثاني أولاد كيلوباترا  
(من سنة ١٠٧ إلى سنة ٨٩)

كان بين هذا الملك وبين أمه شقاق دائم وذلك لسوء تدبيرها وفساد أخلاقها وشرورها عدة مرات في العبث بحقوق ابنها فلما تخيل منها ذلك وعلم ما يخالج صدرها لم يكن منه إلا أن قتلها وفر هاربا إلى جزيرة قوس تخلصا من انتقام الأمة منه فبويع أخوه سوطر الثاني.

## سوطر الثاني (من سنة ٨٩ إلى سنة ٨٢)

قد أوجد عود سوطر الثاني فرحا عظيما في قلوب أهل الإسكندرية دعاهم إلى تسميته بالملك المرغوب أما أهل طيبة فلم يذعنوا لطاعته وأبوا أن يكون ملگا عليهم وجنحوا إلى الثورة والعصيان ودأبوا على ذلك حتى قاتلهم فعادوا إلى الهدوء والانقياد إلى أوامره بقوة جنوده وشوكة عساكره ونتج من هذه الحرب خسائر جسيمة وإضرارات مست مبانيتها العظيمة.

## بطليموس العاشر إسكندر الثاني

(من سنة ٨٢ إلى سنة ٧٣)

لم يترك هذا الملك مآثرة يذكر بها أو عملاً تلهج به الألسنة أو تتحلى بتدوينه صحف التاريخ حيث أنه تولى في وقت كانت بضائع المصاعب فيه رائجة وأسواق الفتن فائقة إذ كانت البلاد من الداخل متفرقة الكلمة بسبب التحزبات والتعصبات لو كانت في الخارج ضعيفة القوة قريبة التلاشي والاضمحلال بسبب انحصارها بين أملاك الرومانيين والسوريين والليبيين والسيريين وقد طمعت خاصة الملك وأهل بطانته في الأهالي فسرّبوا إلى خزائهم أموال الجباية وطالما بذل هذا الملك جهده فيما يستجلب به قلوب رعاياه فلم يتيسر له ذلك لما جبل عليه طبعه من الجفاء وقلبه من القسوة والخشونة ولم ينل من رعيته الأشدة الكراهة والبغضاء التي تأصلت في قلوبهم حتى نفرت منه عساكره وغضت عنه الطرف وهجرته إخوانه ولما أحس بذلك لم يسعه إلا أن فر قاصداً مدينة صور حيث قضى باقي حياته بها موصياً بإعطاء مصر للرومانيين.

## بطليموس أولطيس

(من سنة ٧٢ إلى سنة ٥٢)

لقب هذا الملك بهذا اللقب من باب التهكم والسخرية لشغفه بالزمار وقد نسج على منوال سلفه واقتفى أثره في الانكباب على الشهوات والانغماس في المعاصي حتى أنه في مدة الإحدى والعشرين سنة التي حكم فيها مصر لم يذكره التاريخ بذكر يستحق عليه الثناء بل وصفه بأنه فتح على رعيته أبواب الظلم وأطلق الجور من عقاله عليها وغير ذلك كقتله بنيريس ابنته التي قامت مقامه مدة مغيبه برومه.

## كيلوباترا

(من سنة ٥٢ إلى سنة ٣٠)

هي أول بنات بطليموس أولطيس جلست على أريكة الملك مع أخيها القاصر وفي السنة الرابعة من حكمهما هجم قيصر على بر مصر فخرج أخوها لقتاله وبينما ه يقاومه سقط في النيل فمات غريقاً في الذب عن وطنه وكانت مصر إذ ذاك محاطة بالخطوب والكروب من كل جانب إذ كان متردات يحاول الاستيلاء على مدينة بيلوز ممدودا بجيش سوري جرار من جهة وقيصر يهاجم الإسكندرية من جهة أخرى وقد دافع أهل الإسكندرية عن مدينتهم دفاع من باع حيا ووهب نفسه في خدمة الوطن.

أما كيلوباترا فعزلت عن التخت بسبب طمعها ثم توصلت إلى الدخول في إحدى قاعات السراي الملكية ملفوفة في بساط محمول على ظهر أحد الخدم وبقيت هناك تنتظر قيصر .... ولما تم استيلاء هذا الإمبراطور على الإسكندرية أمر بحرق جملة أقسام من هذه المدينة انتقاما وتشفيا من أهلها الذين قاموا بحق الدفاع ولما رأى كيلوباترا افتتن بجمالها الرائق فحبها حبا مفرطا وأعادها إلى سرير الملك فحكمت مع أخ آخر لها تزوجت به ثم قتلت طمعا بعد أن حكم معها ثماني سنين (٤٢) ولما انفردت بالحكم في مصر أرسلت إلى أنطوان وأوكتاف أسطولا حربيًا إعانة لهما على كاسيوس ورضي مجلس التريومفير أن يكون ابنها بطليموس قيصريون الذي رزقت به من حول قيصر ملكًا على بر مصر ثم لما شبت نيران الحرب بين أنطوان وأوكتاف المذكورين وانهزم أوكتاف في واقعة أكتيوم رأت كيلوباترا أن الانحياز إلى أقوى الطرفين أسلم

عاقبة لها والارتباط به أدعى لتأييد نفوذها وتوطيد مشربها وسعت أن يشملها ذلك الأقوى وهو انطوان بأنظاره ويمدها بحمايته فحبط سعيها وذهب أدراج الرياح إذ أنه لم يجبها على طلبها بل بادر بالاستيلاء على مدينة بيلوز ثم على الإسكندرية فخشيت كيلوباترا أنه متى وصل إليها يعاملها. معاملة الأرقاء فلم يكن منها إلى أن أطلقت على نفسها صلا فماتت في ١٥ أغسطس سنة ٣٠ قبل الميلاد المسيحي وكان هذا اليوم هو آخر أيام العائلة الملوكية التي خلفت الإسكندر على ملك مصر.

\*\*\*

## الدة الرومانية

كانت نصره أوكتاف حادثة شؤم على بلاد مصر إذ صارت هذه الأخيرة إقليها أي جزءا تابعا للملكة الرومانية يحكمها مدير ويتولاها نائب من قبل هذه المملكة وفي سنة ٢١٦ هجم الإمبراطور كراكلا على الإسكندرية بخيله ورجله فجلب لها الدمار وأوردها موارد الاندثار وفشت فيها المظالم في عهد كل من الإمبراطورين مكرين والبوجبال ومن بعدهما من الإمبراطرة ماعدا سبتيم سيفير حتى صارت مهذا لحوادث تقشعر منها الجلود ويلين رأفة بها الحجر الصلد.

وفي سنة ٢٦٩ استولت الملكة زنوبيا ملكة بلمير (ببلاد الشام) على الإسكندرية ثم نزعها منها أورليان في سنة ٢٩٨ وقد فوق هذا الإمبراطور من قوس القساوة سهم النهب والحرب وسفك الدماء إلى هذه المدينة حتى أصبحت خاوية على عروشها ثم عادت إلى الانتشار فيها الديانة المسيحية التي أدخلها بمصر القديس مرقص بعد أن عجزت إمبراطرة الرومان عن مقاومتها لتصدي إمبراطرة القسطنطينية لحمايتها والذود عنها من ابتداء الإمبراطور قسطنطين وقد اهتم آبا الكنيسة والبطارقة في إعادة مدرسة إسكندرية إلى ما كانت عليه من العمران والشهرة وعلو الشأن فوطدوا فيها القواعد الدينية والمبادئ المالية بعد أن اقتفوا آثار البدع ودحضوها.

وشيد بالإسكندرية وجهات الدلتا (المنوفية والغربية) صوامع عديدة للمتعبدين ولكن نظرا للحقد الكامن في قلوب النصارى للديانة الوثنية فقد

تعاقد هؤلاء النصارى على إزالة هذا الدين وكانت لذلك مدينة الإسكندرية  
منظر أهوال ومرسح شدائد لا يتسنى للقلم أن يقوم بوصفها.

ولما دخلت مصر بدعة أوطيشس وهي من أكبر البدع التي أقلق  
وجودها في هذا الحين الكنيسة الحديثة كانت الإسكندرية مركز اضطرابات  
عديدة ومحط قلاقل جمة أدت إلى انفصالها كلية عن روما والقسطنطينية.

## الدة العربية أو الإسلامية

في سنة ٦٤١ من الميلاد الموافقة لسنة ٢٠ من الهجرة استولى الأمير عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- على مدينة الإسكندرية بعد أن حاصرها ١٤ شهرا وفي مدة استيلاء العرب على هذه البلدة أخذت محاسنها وسكانها في النقصان والقلّة واختفت منها الديانة المسيحية ولم تكن أوروبا في هذا العهد ذات تجارة بحرية خاصة بها بل كانت الإسكندرية مع ما ألم بها من الحوادث المفجعة مركز تجارة واسعة وثروة عظيمة وإن لم يبق لها من أهميتها القديمة سوى شيء يسير على أنها كادت أن تعود إلى حالتها الأصلية بالتفات خلفاء بغداد إليها خصوصاً المأمون فإنه شيد بها مباني عظيمة تضاهي في العظم والمتانة ما سبقها من مباني اليونانيين.

ولما استولى الخلفاء الفاطميون على مصر سنة ٩٦٩ ميلادية خولوا الانتشار للعلوم والفنون والتجارة بما منحوه لها من التعضيد والحماية غير أن حال الإسكندرية لم تتحسن عن ذي قبل لانتقال مركز الحكومة منها إلى مدينة القاهرة وبذلك انحطت مدينة البطالسة على رثتها وصارت من عداد مدن الرتبة الثانية من مدن مصر وما كادت عرى الصلات والارتباطات تتحكم بين أوروبا والمشرق حتى نشأت الحروب الدينية التي أدت إلى انقلاب العالم المتمدن وذلك في الحربين الصليبيتين الأولى والثانية (من سنة ١٠٩٦ إلى سنة ١١٤٨م) ولم تتغير حالة الإسكندرية عن أصلها لحد سنة ١١٧١م التي دخل فيها صلاح الدين الكردي مؤسس الدولة الأيوبية ببلاد مصر وأخذ الخلافة

من الفاطميين وطرد الصليبيين من الشام ومن هذا الوقت أخذت الحروب الصليبية تتابع بدون أن ينتصر الصليبيون في واحدة منها وفي سنة ١٢٠٢م استولى البنادقة سكان مدينة فينيزيا على مدينة الإسكندرية فعاد إليها في أيامهم شيء من بهجتها الأصلية وذلك بعلاقاتها التجارية بالشرق الأقصى وبالبحر الأحمر وبحر الهند ثم دمرها ملك قبرص ولما رأى البنادقة أنهم مجبورون على التخلي عنها حرقوها من أولها إلى آخرها وأما في أيام المماليك فلم يعلم عنها شيء أصلاً إذ أن تاريخ حكومتهم الاستبدادية قاصر على ذكر القاهرة وما جاورها من البلاد التي كانت ميدان تعصبهم ومرسح أعمالهم الفظيعة.

وفي سنة ١٣٦٧م الموافق لسنة ٧٦٧ من الهجرة أغار الإفرنج على الإسكندرية وما انتصبت هذه المدينة على قدميها إلا بصلاتها التجارية التي لا بد منها مع البلاد الأخرى وأهمية شهرتها السابقة ولما استولى السلطان سليم الأول على مصر سنة ١٥١٧م لم تكن الإسكندرية زاهرة كما في الزمن السابق غير أنه كان يوجد بها بعض حركة تجارية ناشئة عن تردد التجار البنادقة وملاحى البحر الأبيض المتوسط عليها وقد أخذت تحت حكم الترك تسير سيراً حثيثاً إلى طريق الاندثار وسبيل الدمار حتى انمحى وتلاشى في زمن يسير ما أسسته العرب وشيدته من المباني الفخيمة وقد جعلها المماليك الذين كانوا تارة يخضعون إلى السلطان وطوراً يعصونه في الحالة السيئة التي رأتها بها الفرنسيون في آخر القرن المنصرم وفي ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ الموافق ١٤ مسيدور (وهو الشهر الثاني من السنة الجمهورية وابتدأه ٢٠ يونيو وانهأه ١٩ يولييه) أي السنة السادسة من تشكيل الجمهورية الفرنسية سنة ١٢١٣ من الهجرة النبوية استولى الجنرال بونا برته على مدينة الإسكندرية بفرقة من

العساكر وكان لا يبلغ عدد سكانها ٧٠٠٠ نفس وقال بعض المؤرخين في هذا الصدد ما يأتي «يصعب على الخلف أن يصدق أن ثلاثة آلاف نفر من الفرنسيين استولوا في أقل من ثلاثة ساعات على مدينة الإسكندرية التي بالنسبة لمنعتها وحصانتها كانت تعتبرها الدولة العلية مفتاح ممالكها الأفريقية وقد وقعت هذه المدينة في قبضة الجنرال بونا برته مثل ما وقعت في قبضته من قبل ذلك بمدة يسيرة جزيرة مالطة التي كانت مشهورة أيضا بأنها بعيدة المنال متينة الحصون ولما تم استيلاء هذا الفاتح على تلك النقطة الحربية المهمة أخذ في تتميم فتوحاته متقدما إلى غيرها من المدن والبلدان بعد أن سلمها لجملة من مهندسي الجيش ليرسموا مواقعها فكأن بونا برته إسكندر آخر أتى بعد واحد وعشرين قرنا ليعيد الإسكندرية إلى ما كانت عليه من العز والبهجة والبهاء».

وفي عهد ساكن الجنان المرحوم محمد علي باشا ومن خلفه على كرسي الديار المصرية سلكت مصر سبل التقدم والنجاح وتخلصت مدينة الإسكندرية من حبال عاديات الدهر ونكباته وصارت تمتد شيئا فشيئا إلى أن كادت تبلغ الحدود التي حدها لها مؤسسها الشهير وبعد أن كانت ميناها غير كافية لمرسى المراكب التي كانت تحمل إليها جميع المحصولات من الأنحاء الشاسعة أصبحت في سعة ورحب حتى صارت تعتبر الميناء الأولى في الشرق بعد القسطنطينية.

وقد زالت عنها هذه الخيرات المتدفقة والنعم الجزيلة بسبب عصيان الجهادية في سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢ ميلادية فتخربت من جراء مذبحة ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ م وبعد هذا التاريخ بشهر على التهام رمت الإنكليز قنابلها عليها

ريثما ابتداء العصاة في إحراقها وما هي اليوم قد لبست من الجدة والبهجة ثوبًا  
جديدًا ذا رونقٍ عجيب فعسى أن لا تبلى حوادث الدهر وتقلباته.

## إسكندرية القديمة

قال استرالون: كانت مدينة الإسكندرية محصورة بين البحر الملح وبحيرة مريوط بحيث لا يوصل إليها برا إلا من جهتين وكان بإزائها جزيرة فاروس التي أحدثت بوضعها مع الساحل ميناء آمنة من رياح الشمال الغربي وصار إيصال هذه الجزيرة بالقارة بواسطة جسر يسمى هبستدبون - ومعناه أن طول هذا الجسر سبعة استادات أي ٨٧٥ خطوة - وذلك للارتفاع بهذه المزية العظمى وكان طول هذا الجسر ينتهي من جهة المدينة بمكان يسمى «المحل الأكبر» عند سفح التل المسمى في هذه الأيام بكوم الناضورة أو كوم نابوليون وكان بنهايتي هذا الجسر قنطرتان لكل منهما قلعة حصينة بجانبها وكانت كل قنطرة موضوعة فوق أعمدة عظيمة ذات ارتفاع يمكن للمراكب معه المرور من تحته وانقسمت المينا بهذا الجسر إلى قسمين شرقي ويسمى بالمينا الكبرى وغربي ويسمى بميناء أونوستوس ومعناه العود بالسلامة وكان في الشمال الشرقي من جزيرة فاروس شعب صغير معرض لصدمات الأمواج فصار وصله بالجزيرة بواسطة جسر ضيق وفي آخر هذا الشعب شيدت المنارة المعدودة من عجائب الدنيا السبع وكانت بمدخل الميناء من الجهة اليسرى قصر عظيم متين البنيان مشيد على الرأس المسماة قديما برأس لوشياس (طابية السلسلة الآن) وكان في نهاية هذه الرأس صخور طبيعية تسمى أكرولوشياس ومن مزاياها الطبيعية المفيدة تقليل قوة الأمواج عند مصادمتها لها وكان بقرب هذه الصخور حوض مغلق معد لمرسى المراكب البحرية الملوكية.

وقال استرابون أنه كان يوجد حوض آخر تجاه الجزيرة الصغيرة المسماة انثيروودوس وكان يرى على الجزء الشرقي من المينا حارة السرايات الموجودة على شاطئ البحر وكان بقرها التياترو والبوزيدوم وهيكل نبتون الذي كان موضوعا على لسان من الأرض داخل في المينا وكذلك تيمونوم مارك أنطوان الذي شيده هذا الإمبراطور على طرف الصخور الموجودة قبل البوزيدوم.

ثم القيصر يوم أو السبتيوم الذي كان يرى عند مدخله مسلتان قائمتان والامبوريوم وكان موجودا على بعد ٣٠٠ متر من القيصر يوم ومعنى الامبوريوم البورصة أو السوق وكان يلي الامبوريوم ما كانوا يسمونه ابوستاز أي مخازن البضائع ومستودعاتها وكانت هذه المخازن مشيدة على طول الرصيف وأما ما كان يلي ذلك لغاية الهبتستديون فكانت فيه معامل البحرية وترسخاناتها وكان ورود المراكب على مرفأ أونوستوس نادرا جدا رغما عن كونه أوسع من الآخر بكثير والسبب في ذلك أنه كان يوجد حوض يسمى الكيوتوس متصل بمينا أونوستوس بممر ضيق وكان مأؤه متصلا بهاء الترعة التي كانت تمر من الجنوب الغربي من الإسكندرية وكانت جميع محصولات مصر المخصصة للتصدير إلى الخارج تشحن من هذا الحوض ثم تمر منه إلى المينا الكبرى ومعنى كيوتوس المتقدم الذكر الصندوق.

وكان مما يلي الترعة بقليل تحت أسوار المدينة قرية بكروبويس أو مدينة الأموات وقصر سرزونيز المشيد على نهاية رأس مريوط التي تسد الموردة من الجنوب الغربي ويعلم من جميع ما تقدم أن الإسكندرية كانت موقعا حريا عظيما ومركزا تجاريا مهما.

وأما شوارعها فكانت منتظمة بحيث تسمح للرياح الشمالية المختصة بالبحر الأبيض المتوسط أن تدور في داخلها وكانت هذه الشوارع غاية في الانتظام حتى أن الواقف إذا سرح نظره من أولها لا يحجبه شيء عن تلاقي الأفق من آخرها وكان يمكن للعربات أن تطوف فيها بالحرية التامة وكانت الصهاريج المجعلولة لشرب العامة والتي داخل المنازل تدفق منها المياه العذبة النقية على الدوام وكان بها طريقان يتقاطعان في زوايا قائمة عرض كل منها بلترامي مائة قدم تقريبا وأحدهما كان أخذًا بطول المدينة والثاني بعرضها فالأول وهو أكبرهما كان ممتدًا بين بابي كانوب ونكروبوليس وكان يبلغ طوله ٣٠ استاده أي ٣٧٥٠ قدم والثاني من المينا الكبرى إلى بحيرة مريوط وطوله يبلغ سبع أو ثمان استادات وكان في ملتقى هذين الطريقين أي مركز البلد أكبر محلاتها العمومية وبه تتصل أقسام البلد الأربعة وأكبر هذه الأقسام قسم السراية (جهة المسلة الآن) ثم قسم السربيوم أو قسم راقوطيس أو رقوده (جهة عامود السواري).

وكان قسم السرايات أو البروشيون شاغلا للفضاء الممتد من المينا الكبرى والساحل إلى باب كانوب وكانت فيه القصور والسرايات ومينا الملوك ومينا انترودوس والتياترو والبوزيدوم والتمونوم والقيصريوم والمتحف الجمناز وهو عبارة عن بناء مشيد الأركان متين الجدران ذي أبواب شاهقة عالية مزين بالنقوش والرسوم التي تخلق العقول بألوانها الباهرة وكان طوله أكثر من استاده أي ١٢٥ خطوة من منذ ما وقعت الإسكندرية في قبضة جول قيصر صار تحصين قسم البروشيون وفصله عن باقي المدينة وحوصر هذا القسم سنة

٢٧٠ من الميلاد في آخر أيام الملك كلود الثاني وتحرب في أواخر حكم أورليان سنة ٢٧٥.

وأما قسم راقوطيس فقد كان ممتدا على ساحل مينا أونوستوس وكان فيه هيكل سيرابيس الذي شيده ووسعه بطليموس بن لاغوس مرة أخرى وهو على جزء مرتفع من الأرض كائن بقرب المدينة في النهاية الجنوبية منها.

وما زالت ملوك البطالسة تتنافس في تحسين الإسكندرية فكانوا يحضرون لها مواد البناء من جميع أنحاء مصر خصوصاً من آثارها العظيمة ومبانيها القديمة حتى صارت الإسكندرية مشيدة بالمواد البنائية المصرية وصار فيها كثير من المحلات العمومية الواسعة الجوانب والقصور الشامخة والهاكل الباذخة التي بها أنواع الرخام والخلاصة فكانت هذه المدينة ذات منظر يسر الناظرين.

هذا هو بالنسبة للآثار المادية وأما الآثار الأدبية والعلمية فقد أنشأ فيها بطليموس سوطر مكتبة عظيمة جمع فيها أنواع كتب العلوم والفنون حتى بلغ عدد مجلداتها نيف وربعمائة ألف وأسس محلاً علمياً سماه بمدرسة الإسكندرية وكان يتخرج منه أعظم البلغاء والفلاسفة الذين نبغوا في جميع العلوم وكان بطليموس نفسه يحضر دروس الهندسة على إقليدس معيراً إليه أذناً واعية وعينا صاغية منبها صامتا كأحد التلامذة.

وقال ديودور إن عدد سكان الإسكندرية كان كثيراً جداً بالنسبة لاتساعها إذ كان يبلغ أيام أغسطس نيف وثلثمائة ألف نسمة من الأحرار وضعفها من العبيد وقال العلامة كلفتون كنت أتعجب حين أنظر في سكان الإسكندرية

كيف شغلوا جميع مساكنها مع عظيم اتساعها وكيف وسعتهم هي مع كثرتهم ووفرتهم إذ كانت الطرق دائما عاصة بالمارة والعامّة في ازدحام زائد على اختلاف حوائجهم وكانت حركتها التجارية مع سائر البلاد في نشاط دائم بواسطة البحيرات والترع فترعة كانوب كان يمكن للسفن أن تسير فيها من النيل إلى الإسكندرية وهي التي كانت تمد الصهاريج الموجودة بالمدينة بمياهها الروية مع ما كان ينتفع بها في توصيل التجارة والبضائع إلى الإسكندرية وبسببها أخصبت الأرض التي على شاطئها المحفوفين بغيطان الكروم والبلح وغيرهما من الأثمار وكان عليها أيضا المنازل الخلوية والبساتين النضرة التي تذهب بمشاهدة رونقها الحسن جميع الهم والحزن وتؤذن بانسراح الصدور وإزاحة الكروب وكان عند طرفي المدينة المتقابلين قرى صغيرة زاد اتساعها زيادة عظيمة فالقرية التي كانت في الجنوب الغربي منها على ساحل البحر تسمى نكروبوليس والتي كانت موجودة في الشمال الشرقي منها خارج باب كانوب فيما يلي الأيودروم تسمى أيلوزيس ونيكوبوليس وسمت هذه الأخيرة بهذا الاسم تذكارا لانتصار أغسطس على أنطوان.

هذا وكانت الإسكندرية في الزمن السابق مركز الدنيا المعلومة إذ ذاك ولهذا كانت تجارتها مع الهند والقرطاجنيين والرومان في حركة مستمرة وبقيت محصورة فيها مدة ثمانية عشر قرنا إلى أن فتح البرتغاليون طريق آسيا من رأس الرجاء الصالح.

هذه كانت حالة الإسكندرية اليونانية فإنها في أيام البطالسة الأول بلغت أوج الرفعة وارتقت أعلى درجات السعادة فما كان أحسنها من بلد تشبه

الروضة الغناء والغادة الحسناء باسمه الثغر تبش في وجه الوافدين عليها طلق  
محياتها ولا عيب فيها غير أنها تودع قلب من زارها حبا شديدا.

وآخر من حكم على هذه المدينة من عائلة اللاغين كيلوباترا الموصوفة  
بفرط الجمال والحسن وهي التي قيل فيها أنها شاركت إيزيس معبود مصر في  
أوصافه وكانت تميل كثيرا إلى الشهوات والحب حتى فتنت جميع الناس بحبها  
وألقتهم في شرك هواها.



## في الكلام على آثار الإسكندرية

### (جزيرة فاروس القديمة)

إن جزيرة فاروس التي تحد ميناء أونوستوس (المينا الغربية) من الجهة الشمالية الغربية تحتوي على أطلال لا يخلو الإتيان بذكرها من بعض الفوائد فنقول إن في هذه الجزيرة أطلال صهاريج قديمة محفورة في الصخر ومطلية بالأسمت وفي غربها بقايا مغارات مطلية بطلاء يرى عليه حتى الآن رسوم ونقوش قديمة وتنقسم هذه المغارة إلى جملة أقسام تتصل ببعضها وهي تشبه المغارات الموجودة على ساحل نكروبوليس وقد غطى البحر في هذه الأيام بقايا الأبنية التي حول جزيرة فاروس وهذا مما يثبت أنها كانت قبل أوسع من الآن بكثير وقال بعض المؤرخين «أنه كان يوجد بجزيرة فاروس بيوت مصرية وقرية كبيرة تعود أهلها اغتيال السفن التي تفضل عن الطريق لعدم موادة الريح لها أو لسوء تدبير ربانها» وقال هرتوس بنسا «إن مدينة فاروس كانت محصنة بجملة بروج شامخة ولشدة تقاربها من بعضها كانت تشبه السور العظيم» وكانت الصخرة الموجودة على بعد خمسة وعشرين أو ثلاثين خطوة من نهاية رأس التين مسكنًا لجملة من أهل الإسكندرية ومما يؤكد ذلك أنه يرى بقرب الرصيف الحديد المانع للأمواج جملة أعمدة مكسورة وأحجار مطلية بطلائها

الأصلي حتى الآن وقد كادت تتحول هذه الصخرة إلى رمل لشدة تأثير المياه فيها.

هذا وجزيرة فاروس القديمة متصلة الآن بالبر بواسطة اللسان القائم مقام الهبتستديون المتقدم الذكر وعليه توجد مساكن الوطنيين الآن وطول الجزيرة من نهايتها الشرقية إلى فانار رأس التين الجديد ٢٦٠٠ متر ومتوسط عرضها يختلف من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ متر ويظهر أن الجزيرة الصغيرة المشيد عليها الآن حصن آطه لم تكن قبل إلا بمنزلة جون صغير جدا بجزيرة فاروس.



المنارة

## المنارة القديمة أو منارة البطالسة

في النهاية الشرقية من جزيرة فاروس صخرة عرضها ٢٠٠ متر وطولها ٢٣٠ متر كانت المنارة القديمة مشيدة عليها وفي موضعها أسست العرب طابية قائد باي ويمكن اعتبار هذه الصخرة كرأس كانت منفصلة من قديم الزمان عن الجزيرة الحالية ثم اتصلت بها بواسطة جسر طويل وكان الابتداء في تشييد ذلك الأثر المنيف في عهد بطليموس سوطر وانتهاه في عهد ابنه فيلادلف بمعرفة وإدارة المهندس الشهير سوسترات دوسنيد بن دكسيفان.

وكانت المنارة مركبة من جملة طبقات آخذة في الصغر بالتدريج كلما بعدت عن الأرض وكان حول هذه الطبقات شرافات محمولة على أعمدة متينة كان إذا وقف فيها الإنسان رأي جميع أحياء مدينة الإسكندرية وضواحيها إلى مسافات شاسعة.

وقد أكد بعض المؤلفين أن المنارة كانت ثلاثية الشكل وأن الجزء الأسفل منها كان عظيم الاتساع بحيث بلغ عرضه نصف ارتفاع المنارة الكلي وكان يرى مكتوبا على أحد جهاتها ما نصه «من سوسترات دوسنيد بن دكسيفان إلى الآلهة المساعدين للملاحين» وكانت النار تضرع على قمة هذا البناء الشامخ الذي كان يبلغ ارتفاعه أربعماية ذراع فتنبعث أشعتها الضوئية إلى مسافة ٣٠٠ استاده أي ٣٧٥٠٠ خطوة وأما في النهار فكان الدخان يقوم مقام النار في الليل وقال بعض المؤرخين إنه كان يوجد باعلا المنارة مرآة مصقولة من الصلب

تنعكس فيها صور المراكب بمجرد ظهورها على الأفق وأكد أبو الفدا وجود هذه المرآة في سنة ٩٢ من الهجرة الموافقة لسنة ٧١٢ من الميلاد وقد علم مما سبق أن جزيرة فاروس كانت تسمى بهذا الاسم قبل أن يوحد بالإسكندرية مصباح يستضيء به الملاحون في الغدو والرواح فالمنارة أي (الفنار) سميت باسم المكان الذي شيدت فيه وقد أطلق هذا الاسم على جميع المباني التي من هذا النوع واتخذت منارة الإسكندرية مثالا يحذى عليه في ما شيد بعد من المنارات وقال بلين إنه رأى بعينه منارات كابريه وبوزول ورافين وجملة منارات أخرى على بوسفور تراسه وقال سويتون إن الإمبراطور كلود شيد منارة أوستيا على مثال منارة الإسكندرية ومع ذلك فإن وصف كلتا المنارتين مجهول لا يعرف على أنه وحد على بعض النقود صورة منارة الإسكندرية ولكن أجزاء هذه الصورة كانت غير واضحة لقدم عهدهما وقد شبه المنارة هيرود يانوس المؤرخ اليوناني الذي كان عائشا في القرنين الثاني والثالث من الميلاد فقال «أنها كالقبور المصنوعة من أبنية منشورية الشكل موضوعة فوق بعضها».

هذا هو ملخص ما يوثق به من تاريخ المنارة وقد رأينا من المستحسن أن نسرد ما ذكره المؤرخون في هذا الموضوع تكميلاً للفائدة فنقول:

قال ياقوت يصف المنارة «وأما المنارة فقد رويها أخبارا هائلة وأدعوا لها دعاوى عن الصدق عادله وعن الحق مائله فهي من باب حدث عن البحر ولا حرج وأكثرها باطل وتهاويل لا يقبلها إلا الجاهل ..... وقد شاهدتها في جماعة من العلماء وعاد كل منا متعجبا منا متعجبا من تخرص الرواة وذلك إنما هي بنية مربعة شبيهة بالحصن والصومعة مثل سائر الأبنية ولقد رأيت ركنًا من أركانها

وقد تهدم فدعمه الصالح رزبك أو غيره من وزراء المصريين واستجده فكان أحكم وأتقن وأحسن من الذي قبله وهو ظاهر فيه كالشامة لأن حجارة هذا المستجد أحكم وأعلم من القديم وأحسن وصفاً ورصفاً وأما صفتها التي شاهدتها فأنها حصن عال على من جبل مشرف في البحر في طرف جزيرة بارزة في مينا إسكندرية بينها وبين البر نحو شوط فرس وليس إليها طريق إلا في ماء البحر المالح وبلغني أنه يحاض من أحد جهاته الماء إليها والمنارة مربعة البناء ولها درجة واسعة يمكن الفارس أن يصعد بها بفرسه وقد سقفت الدرج بحجارة طوال مركبة على الحائطين المكتنفى الدرجة فيرتقى إلى طبقة عالية يشرف منها على البحر بشرفات محيطة بموضع آخر كأنه حصن آخر مربع يرتقي فيه بدرج أخرى إلى موضع آخر يشرف منه على السطح الأول بشرفات أخرى وفي هذا الموضع قبة كأنها قبة الديديان وليس فيه كما يقال غرف كثيرة ومساكن متسعة يقتل فيها الجاهل بها بل الدرجة مستديرة بشيء كالبر فارغ زعموا أنه مهلك وأنه إلى ألقى فيه الشيء لا يعرف قراره ولم اختبره» وذكر ابن الأثير أن رأس المنارة سقط سنة ١٨٠ هجرية بزلزلة عظيمة حدثت بمصر.

وقال المقرئ في خطه إن منارة الإسكندرية أحد بنيان العالم العجيب بناها بعض البطالسة من ملوك اليونانيين بعد وفاة الإسكندر بن فيلش لما كان بينهم وبين ملوك روما من الحروب في البر والبحر فجعلوا هذه المنارة مرقبا في أعاليها مرآة عظيمة من نوع الأحجار الشفافة لي شاهد منها مراكب البحر إذا أقبلت من روما على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها فيستعدون لها قبل ورودها وطول المنارة في هذا الوقت تقريبا ٢٣٠ ذراعا بعد أن كان طولها ٤٠٠ ذراعاً فتهدمت من ترادف الأمطار والزلازل وبنائها على ثلاثة أشكال فقريب

من النصف وأكثر من الثلث بناؤه مربع الشكل بأحجار بيض وذلك نحو ١٠٠ ذراع وعشرة أذرع تقريبا ثم بعد ذلك يكون مثنى الشكل مبني بالحجر والجص وذلك نيف وستين ذراعا وحولها فضاء يدور فيه الإنسان وأعلاها مدورورم أحمد بن طولون شيئا منها وجعل في أعلاها قبة من الخشب ليصعد إليها من داخلها وهي مبسوطة منحرفة بغير درج وفي الجهة الشمالية من المنارة كتابة برصاص مدفون بقلم يوناني طول كل حرف ذراع في عرض شبر ومقدارها على جهة الأرض نحو مائة ذراع وبلغ ماء البحر أصلها وقد كان تهدم أحد أركانها الغربية مما يلي البحر فبناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وفي أيام الظاهر بيبرس تداعى أحد أركان المنارة وسقط فأمر ببناء ما تهدم منها في سنة ٦٧٣ وبني مكان القبة مسجدا وهدم في ذي الحجة سنة ٧٠٢ من زلزلة ثم بني في سنة ٧٠٣ وهو باق إلى يومنا هذا وبينها وبين مدينة إسكندرية في هذا الوقت نحو ميل وهي على طرف لسان من الأرض قد ركبها البحر وهي مبنية على فم مينا إسكندرية وليست المينا القديمة لأنها في المدينة العتيقة ولا ترمو بها المراكب لبعدها عن العمران وفي سنة ٣٤٤ تهدم من المنارة نحو ٣٠ ذراعا من أعلاها بالزلزلة التي كانت ببلاد مصر وكثير من بلاد الشام والمغرب في ساعة واحدة على ما وردت به الأخبار المتواترة بفسطاط مصر وكان لهذه المنارة مجمع في يوم خميس العدس يخرج فيه أهل إسكندرية إلى المنارة من مساكنهم ولا بد أن يكون فيها عدس فيفتح باب المنارة وتدخله الناس فمنهم من يذكر الله ومنهم من يصلي ومنهم من يلهو ولا يزالون كذلك إلى نصف النهار ثم يصرفون ومن ذلك اليوم يحترس على البحر من هجوم العدو».

وقال بعضهم أنه قاسها فوجد أن ارتفاع الطبقة الأولى ١٢١ ذراعا والثانية ٨١ ونصف والثالثة ٣١ ونصف وقاس بن جبر أحد أضلاعها في سنة ٥٧٨ هجرية الموافقة لسنة ١١٨٢ ميلادية فوجده يبلغ ٥٠ ذراعا وقال الجوابه الرحالة ابن بطوطة «قصدت المنار في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدما وصفته أنه بناء مربع ذاهب في الهواء وبابه مرتفع على الأرض وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه فإذا أزيلت لم يكن له سبيل وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار وداخل المنار بيوت كثيرة وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة أشبار وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبرا وهو على تل مرتفع ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصل إلى المنار في البر إلا من المدينة وقصدت المنار عند عودي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعماية فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله فعاقه الموت عن إتمامه».

وأقدم ما قيل في المنارة قصيدة شعر به منسوبة للشاعر اليوناني بوزيديد الذي كان مرافقا لكاليماك في بلاط الملك بطليموس فيلادلف وقد وجدت هذه القصيدة على ورقة من البردي في سيرايوم مفيس مع أربعة وأربعين بيتا من رواية مخزنة مفقود باقيها وعدة أبيات أخر وحساب ما صرفته الخزينة العمومية من العيش والقمح ثم قصيدة أخرى يذكر فيها اسم ارسينوه امرأة بطليموس فيلادلف.

وموءدي القصيدة المختصة بمنار الإسكندرية هو «قد شيد سوسترات دوسيد بن دكسينان في جريد أروس هذه المنارة التي لا تنام عينها حبا في سلامة اليونان ولا يوجد بمصر قاطبة جزيرة أكثر ارتفاعا من هذه ومن مراياها العظمى أنها تكون مأمنا للمراكب من الأخطار ولو بلغ البحر من الهيجان أشده وقد شيدت فيها المنارة داهمة في الهواء أعلى الصخور المنيعة والشعوب العزيزة المنال لتكون مرشدا للفلاحين ودليلا لهم في الليل والنهار وإذا رأوا استعار النار في أعلاها وكانت تحملهم الأمواج على متونها وتقذفهم من مكان إلى مكان جعلوا مقصدهم بلا ريب جهة (تروكير) فإذا نهجوا هذا المنهاج وسلكوا هذا السبيل لا يعدمون منك أيها الإله المنجي المساعدة والسلامة».

وقال هوميرس الشاعر اليوناني القديم الذي كان عائشا في سنة ٩٠ قبل الميلاد أي قبل تشييد المنارة بأزمان مديدة في الغناء الرابع من قصيدة الأوديسة ما يأتي «وفي وسط لجج الأمواج قبل بلاد أحبوس جزيرة تسمى فاروس على بعد منها يساوي ما تقطعه المركب عادة في نهار واحد إذا كان الريح معتدلا وموافقا وهناك توجد موردة مأمونة منها يأخذ البحريون ما يلزمهم من الماء ثم يسرون في سبيلهم إلى حيث يشاؤون».

ومن هنا يستتج أن جزيرة فاروس كانت في أيام هذا الشاعر اليوناني الطائر الصيت بعيدة جدا عن الساحل والظاهر أن طمي النيل قرب الساحل منها إلى الحد الذي نراه عليه الآن ونحن نستند في قولنا هذا على ما قاله المؤرخ بلين الذي كان عائشا في القرن الأول من الميلاد وهو «أن الجزء الأعظم من بلاد مصر إنما هو متولد من طمي النيل في المدة التي تلت عصر هومبرس الشاعر».

وقال استرابون «أن الرأس الموجودة شرقي جزيرة فاروس كانت عبارة عن صخرة متسعة محاطة بالمياه من جميع جهاتها كباقي الصخور المجاورة لها وفيها منارة عظيمة مبنية بالرخام الأبيض وتسمى باسم الجزيرة والذي شيدها هو سوسترات دوسيد نديم الملك وذلك لسلامة الملاحين وكانوا يضعون في أعلاها إشارة لقصدها الملاحون من أعالي البحر كيلا يضلوا عن مدخل المينا وسبب ذلك أن هذه الجهات منخفضة جدا ومحتوية على شعوب صلبة ورمال مجتمعة فكان المرور منها لا يخلو من الخطر وكانت الجهة الغربية بهذه الصفة إلا أنها أقل صعوبة من الأولى وهي توصل إلى مينا أخرى تسمى أونوستوس يوجد بداخلها مينا أخرى صناعية هي والسابقة مفصولتان عن المينا الكبرى التي يوجد في مدخلها المنار بحسر يسمى هتستديون».

وقال قيصر في شرحه «إن مدخل المينا ضيق جدا حتى أن المراكب لا يمكنها العبور منه ولما خشى قيصر أن العدو يستولى على المنارة احتلها بعساكره ورتب عليها الحرس اللازم أمكنه الحصول على الميرة من البر والبحر ولذلك أرسل إلى أكثر الممالك المجاورة لحصول على مطلوبه من ذلك».

وقال أيضا «إن فاروس عبارة عن برج مرتفع عجيب الهدام مشيد على جزيرة سمي هو باسمها».

وقال المؤرخ يوسيفوس (٣٧ - ٩٥) في تاريخه حروب الإسرائيليين والرومانيين عند كلامه على منارة فزائيل المشيدة بأورشليم «وشكلها يشبه شكل منارة الإسكندرية ففي أعلاها نار مشتعلة بمثابة مصباح الملاحين يمنعهم من الاتجاه نحو الصخور التي تسبب غرقهم ولكن أطوال منارة

الإسكندرية أكبر من أطوال الأخرى» وقال أيضا «ويصعب على المراكب الدخول من بوغاز الإسكندرية حتى في وقت سكون البحر وهدوؤه والسبب في ذلك هو أن البوغاز المذكور ضيق جدا ومملوء بالصخور الكثيرة التي ربما أحادت تلك المراكب عن الطريق القويم ويوجد في الجهة اليسرى جسر عظيم أشبه شيء بذراع ضم إليه جميع المينا وكانت تضمها أيضًا من الجهة اليمنى جزيرة فاروس التي في نهايتها درج مرتفع تضرم في أعلاه نار تصل أشعتها إلى بعد ٣٠٠ استاده فتبين للملاحين الطريق الواجب عليهم أتباعه».

وزعم بوسيفوس المذكور أن ارتفاع المنارة ٩٠ ذراعاً أي ٥٦ متراً فقط وأن ارتفاع التل الذي يحملها ٣٠ ذراعاً وهو زعم فاسد وقول باطل لأن ارتفاع المنارة يكون في هذه الحالة أقل من جميع الارتفاعات التي أوردناها عن المؤرخين الذين سلف ذكرهم وادعى أيبفان الإسكولستيكي الكاتب المنشي الذي كان عائشاً في القرن السادس من الميلاد أن ارتفاعها يبلغ ٣٠٠ أورجيا (مقياس يوناني) وبما أن طول الأورجيا هو متر واحد و ٨٥ سنتي فبناء عليه يكون ارتفاع المنارة هو ٥٥٠ متراً وهو ادعاء باطل وقول خيال لا أساس له من الصحة لأن استحالته ظاهرة من فرط عظم هذا الارتفاع ولو فرضنا أن المؤلف أراد أن يقول امبان وهو مقياس يوناني أيضا بدلا عن لفظة أورجيا لكان ارتفاع المنارة ٧٠ متراً وهو قليل أيضا.

هذا هو ملخص ما أورده ثناء المؤرخين من الآراء والأقوال وهو وإن لم ينطبق على أصل المنارة الحقيقي تمام الانطباق إلا إن أغلبه قريب منه وما سوى

ذلك فهو محض ترهات وأباطيل وخرافات لا يجمل بالليب الأريب أن يعيز سمعه إليها.

وقال المؤرخ شامبوليون في وصفها «أنها عبارة عن صرح شامخ مبني في جزيرة صغيرة وصلها بطليموس بالشاطئ بواسطة جسر طويل وكانت المنارة من أنفع المباني التي شيدت في زمن بطليموس سوطر لأنها سهلت على الملاحين الملاحة بالجهات المجاورة للإسكندرية وكانت مركبة من عدة طبقات تأخذ في الصغر كلما بعدت عن وجه الأرض وقيل أن ارتفاعها كان يبلغ ١٠٠٠ ذراع وأنه كان بداخلها درج يوصل إلى جميع غرفها وكان يمكن للحيوانات أن تصعد إلى أعلاها بواسطة هذا الدرج وكان يوجد منها في القرن الثاني عشر من الميلاد المسيحي ١٥٠ ذراعا وتوجد صورة المنارة علي جملة وسامات» وقال بلين أن تكاليفها بلغت ٨٠٠ تالان أي ١٦٠٠٠٠ جنيه.

ومن الصعب الآن تتبع بقايا هذا الأثر الحميد وغاية ما نعلمه أنه كان موجودا أيضا في نهاية القرن الثالث عشر من الميلاد إلا أنه اندثر ولم يبق منه أثر في القرن الخامس عشر وفي أيامنا هذه يرى عند هدو البحر بقرب سواحل مدخل المينا الكبرى بعض كتل من الرخام والجرانيت مغطاة بالماء ومن المرجح أن هذه الأحجار هي من بقايا المنارة القديمة ويوجد في تلك النواحي أيضا قطع متكسرة من الجرانيت من اختبارها ثبت لديه أنها تدل على بعض مبان قديمة وقد صارت هذه البقايا بسبب طول مكثها في الماء يابسة جدًا تتلقى مصادمة الأمواج عن حصن قائد باي.

ولا بدع أن اندهش المتفرج من هذه الجزيرة التي كان موجودا بها إحدى عجائب الدنيا السبع ومع ذلك فإن هذا الأثر الفخيم الذي تخلد اسمه مدى الدهور والأيام ما أمكنه التخلص من عوادي الزمن بل صارت السواحل قبرا له لن ينشر منه إلى الأبد وعليه فقد اختفت المنارة بدون أن يهتم أحد بحفظ صورتها الأصلية ومن تأمل يجد بقرب الحصن من ناحية الشمال صخرة تسمى صخرة الماس يشاهد على سطحها عند سكون البحر وهدوه أثار أبنية قديمة ويرى حولها بعض أحجار منحوته زعم بعضهم أن موضع المنارة كان في هذه الصخرة ولكننا نُقيل رأيه بأن هذه الصخرة لم تكن متسعة لا قديما ولا حديثا حتى أنها تسع قاعدة بناء عظيم يشبه المنارة.



## منارة العرب

من المعلوم أن سلاطين المماليك البحرية كانوا قد شيّدوا في محل منارة البطالسة حصناً منيعاً محاطاً بسور ذي شرفات وكان بداخله منارة مربعة فوقها أربعة منارات صغيرة يعلوها مصباح تضرم فيه النار مدة الليل وكان هذا الحصن يحتوي في ابتداء هذا القرن على آثار كثيرة مختصة بالمدينة القديمة كحياض من الرخام وقبور وأعمدة من الجرانيت وتيجان أعمدة ومدافع من مدافع ذلك الوقت المشهورة بزيادة طولها وقنابل من الأحجار مختلفة المعايير وكان في بعض مخازن ذلك الحصن أسلحة وخوذ وحراب وجعاب يظن أنها مصنوعة من قبل الهجرة بزمن مديد وكان في جهات أخرى من ذلك الحصن سيوف وأسلحة علاها الصدااء ويعلم من شكلها وما فيها من النقوش أنها من أسلحة الصليبيين ومن تجريدة الملك لويز التاسع وقد هدمت عساكر بونا برته كل هاتيك المعقل وشيّدوا الحصن مرة أخرى فصار متيناً بعيد المنال بعد أن بذلوا الجهد في حفظ شكله الهندسي الأصلي وفي عهد المرحوم ساكن الجنان محمد علي باشا جرت عملية ترميمات تغير بسببها منظره ولما جاءت أيام شهر يولييه سنة ١٨٨٢ انهدم من قنابل الإنكليز وصار أثراً بعد عين.

## المينا الكبرى

إن المينا الأصلية لمدينة إسكندرية هي المينا الشرفية التي كانت تسمى قديماً مانيوش بورتوس أي المينا الكبرى وكان مدخلها محصوراً بين المنارة واكرولوشياس وقد وضح ذلك صاحب العطفة ناظر المعارف العمومية في خططه فقال «إن المينا كانت منقولة من جميع الجهات ما عدا الفم الذي كانت السفن تدخل منه الذي هو من جهة المنار وعرضه ٦٠٠ والظاهر أنه كان منقسماً إلى قسمين أحدهما صغير وهو الذي كان من جهة المنار وقدره ١٠٠ متر تقريباً والآخر عرضه ٢٠٠ وكانا منفصلين بصخرة وهي الآن تحت الماء بقدر ٧ أمتار وفي كتاب ماني الفرنساوي أن الفتحة الكبرى كانت بقرب المنار وتنتهي بصخور بني فوقها قلعة ومنارتان والفتحة الثانية كانت بعد هذه وكان على نهايتها من جهة برج السلسلة منار ثالث انهدم ولم يبق له أثر في وقته وكانت المراكب تمر بين الثاني والثالث من المنارات ولكنه لصغره وكثرة صخوره كان لا يستعمل إلا للمراكب الصغيرة والآخر هو الذي كان يكثُر استعماله كانت الفتحات المذكورة تقفل بسلاسل من الحديد».

وكانت المراكب تتردد على هذه المينا بكثرة فائقة لزيادة أهميتها وجزيل منفعتها وكان اليونانيون والرومانيون يوءسسون مساكنهم على الجزء الشرقي منها لأن السفن كانت لا ترسو عليه أما مبانيهم الأخرى المخصصة للتجارة والمنافع العمومية فكانت على الجزء الداخل منها حول قرية رقوده القديمة وحوضي يوستوس وكيوتوس اللذين كانا عبارة عن مين ثانوية للمينا الكبرى

وكان شكل المينا في الزمن السابق هو تقريباً عين شكلها الآن وقال استرابون إنها كانت عميقة جداً بقرب الساحل حتى أن المراكب على اختلاف عظمها كانت تقف بجانبها وفي أيامنا هذه قد نقص هذا العمق لتراكم الرمال التي تقذفها الأمواج عليه منذ تغطي بالمياه جسر اكرولوشياس والصخور التي كانت تصد هجمات الأمواج عنه ومن مالت نفسه إلى نزهة أفكاره بالسير في البحر في يوم سماءه صاحية يرى بقايا أبنية في داخل المينا كانت مشيدة على جزائر صغيرة طبيعية ومحدثة.

وفي سنة ١٨٧٣م عثر المرحوم محمود باشا الفلكي تحت استواء البحر بأربعة أمتار بصخرة تكون مع جسر اكرولوشياس حوضاً صغيراً عند رأس لوشياس وكان هذا الحوض يسمى بمينا الملوك وكذلك اكتشف على بقايا جزيرة صغيرة بعيدة عن الساحل بقدر ٣٠٠ متر وموضعها غربي مينا الملوك على بعد ٤٠٠ متر منها وشكلها شكل حدوة الحصان وعليها بقايا مبان قديمة ويظن أن النيمونوم كان مشيداً عليها وكان يتوصل منها إلى البر بجسر في منتصف المسافة التي بين برج السلسلة وجسر السبع غلوات.

وقال استرابون «ويوجد قبل مينا الملوك جزيرة صغيرة تسمى انثيروودوس كان مبنياً عليها بيت ملوكي» وقد اكتشف أيضاً المرحوم محمد باشا علي بعد ٦٥٠ متراً تقريباً من مينا الملوك لساناً من الأرض طوله ٢٠٠ متراً يليه بناء تبلغ طوله ٣٠٠ متر ذو اتجاه مواز للتهستديون وقد سطا البحر على جزء من محيط المينا الكبرى المسماة الآن بالمينا الجديدة ابتداءه موقع المنارة فسكة جديد الرسل فرأس لوشياس (السلسلة) وتوجد على هذا الساحل آثار قديمة أغلبها

مغمور بالمياه في جهات متعددة ويستخرج منها أعمدة جميلة تستعملها أغنياء الإسكندرية في بناء بيوتهم ويوجد أيضا على تلك الشواطئ أبنية من الأجر جدرانها الداخلية مطلية بالأسمنت وهيئة هذه المباني القديمة تحدو بنا إلى الظن بأنها كانت صهاريج وحمامات خصوصية كان يوجد فيها الماء المالح والماء العذب وتوجد على نفس هذا الشاطئ الذي صار في أيامنا هذه عمودي الشكل تقريبا أبنية أخرى خلاف التي من الأجر غير أن المصنوعة من هذا الأخير هي الغالبة وقد اكتشف بهذه الأماكن في سنة ١٨٠٢ تمثالان من الرخام الأبيض أحدهما تمثال الإمبراطور ماركوريل بجسامته الطبيعية والآخر تمثال سبتيموس سيفيروس وهو أكبر حجما من الأول.

وفي القرن السادس عشر من الميلاد سكنت الأتراك على الهبتستديون المهجور من ابتداء فتح المسلمين للإسكندرية وكان قد اتسع كثيرا بسبب تراكم الرمال على جانبيه وما زال يزداد اتساعا حتى وسع مدينة عظيمة ذات مباني عديدة خلفت مدينة البطالسه والرومانيين.

## (في قصورها القديمة ومبانيها العمومية)

## (في الكلام على المسلات والقيصر يوم)

كان يوجد في سنة ١٨٧٨ على ساحل المينا الشرقي بقرب محطة سكة حديد الرمل مسلة من الحرايت الوردي تسميها العامة مسلة كيلوباترا ويبلغ ارتفاعها واحدا وعشرين مترا تقريبا وكان يوجد بقربها قبل ذلك بعدة سنين مسلة أخرى ملقاة على الأرض وقد أخذ الإنكليز إحدى هاتين المسلتين ووضعوها على شاطئ نهر التميز وأخذ الأمريكيون الثانية وكان اسم نوتمس الثالث أحد فراعنة مصر منقوشا على الأولى واسم رمسيس الثاني على الثانية وكل منهما يدل كما شهد بذلك بلين وبعض مؤرخي الأزمان القديمة على مكان القيصر يوم أي هيكل قيصر.

وذكر صاحب العطفة علي باشا مبارك في خطته ما يأتي.

«وقال بلين إن ارتفاع كل من المسلتين ٤٢ ذراعا وبمقارنة أجزاء المسلة إلى بعضها يرى ارتفاع الهرم الصغير قريبا من عرض القاعدة وهذا العرض منحصر بين التسع والعشر للارتفاع الكلي وقد امتحنت جميع المباني التي من هذا القبيل فوجدت جميعها على هذه النسبة ومن هنا يظن أنه كان للمصريين قواعد لا يخرجون عنها في تفصيل أجزاء مثل هذه المباني وباعتبار طول الذراع المصري ٠,٤٦٢ مترا يكون ارتفاع المسلة إلى أصل الهرم ٤٠ ذراعا وإلى آخره ٤٤ وفي زمن البطالسه كانت المسلتان قائمتين أمام المعبد الذي كان بُني

بإسكندرية زمن الملكة كيلوباتره باسم القيصر والد ابنها وقد عاينه اشترايون حين ساح في بلاد مصر وذلك قبل الميلاد بأربع وثمانين سنة فنسبتها حينئذ إلى هذه الملكة لا شك فيها بخلاف خليج إسكندرية وما يسميه الناس بحمامات كيلوباتره فإنها لا ينسبان لها أصلاً فإن الخليج موجود قبلها والحمامات كانت مقابر لا غير».

أما القيصريوم المسمى أيضاً بالسيباستيوم فقد ذكر عنه فيلون الإسكندري ما يأتي «لا بنية في الدنيا بأسرها تشبه الهيكل الذي شُيد تذكراً للمكان الذي نزل فيه قيصر أغسطس من البحر إلى الإسكندرية وهذا الهيكل الجسيم الاتساع الذي لا يوجد له مثل في أقطار الأرض بطولها والعرض كان قائماً تجاه المين التي لا تطرقها نكبات الدهر وهو مملوء من النقوش والرسوم والتماثيل الذهبية والفضية ومحاط بسور عظيم عريض فيه أبواب كثيرة ومكاتب عديدة ومنازل للرجال وأماكن متسعة وقاعات فسيحة وبالجملة جميع أنواع المباني التي تدهش الأبصار بحسن تنسيقها وبديع نظامها وهو كعبة أمل الذين يأتون إلى هنا من البلاد الأجنبية والذين يعودون إليه من أسفارهم».

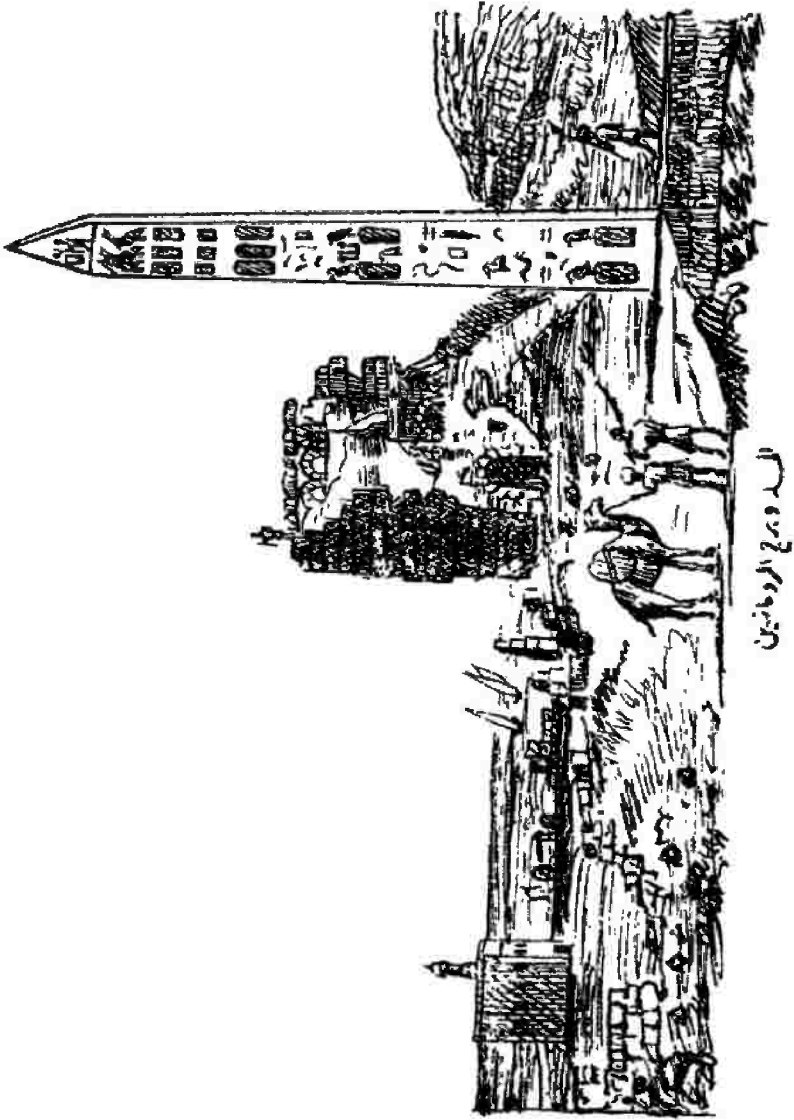
ومن الصعب في هذه الأيام تتبع بقايا القيصريوم على أنه يرى الآن على شاطئ البحر بقايا أبنية توجد بينها أعمدة وتيجان أعمدة من الرتبة الدوربكية وفي سنة ١٨٧٥ م عثر العالم العلامة نيروتسوس بك علي عمود رخام من بقايا الهيكل المتقدم الذكر مكتوب عليه باليونانية ما يأتي «من رؤساء العشر الموجودين بأسطول الحرس الإمبراطوري الروماني. واجبات العبودية للآلهة

القيصريين المذكورة في هذا العمود. من قيصر لوسيوش فيروس أغسطس السنة السادسة».

ولم يتيسر للآن تحديد وضع هيكل قيصر بطريقة قطعية غير أنه من المظنون أن محور هذا البناء كان متجهاً من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي بين قاعدتي المستلتيين بحيث يكون مدخل هذا الهيكل إلى جهة البحر فترى المستلتان من مسافات بعيدة وربما كان وضع المستلتيين إلى جهة البلد وهذا الوضع الأخير ملائم لمقتضيات الأحوال فكل اعتراض يقوم على هذا الفرض فهو لا محالة مدحوض وبما أن البحر قد سطا على الشاطئ وغطاه بالرمل فوجود المستلتيين بقربه يظهر أنه ناشئ من تقدم الجزء المؤخر من الهيكل في البحر للسبب المتقدم الذكر.

وكان القيصريوم موجوداً في أيام استرابون الذي عاش ٣٢ سنة من أيام حكم أغسطس ولا بد أن انطوان صاحب قيصر وكيلوباترا هو الذي شيد القيصريوم أو كان أوكتاف بن أخ هذا الدكتاتور هو الذي شيده ولما مات هذا الرجل الجليل المقدار أصدر السيناتو أمراً بجعله من عداد الألهة المعبودة واتبعت هذه الشعائر مدة زمن مديد بالإسكندرية وعلى ذلك فتكون المسافة الزمنية الكائنة بين هذا الوقت وبين موت كل من أنطوان وكيلوباتره ١٣ سنة على التقريب وهو الزمن الذي بني في خلاله القيصريوم وبعد أن مر على تأسيسه ثلاثة قرون قلب وضعه إلى كنيسة مسيحية سميت باسم الهيكل الأصلي وباسم سياستيوم ولما اضطرت نيران الفتن الداخلية بين الوثنيين والمسيحيين في سنة ٣٦٢ من الميلاد حرقت عساكر الإمبراطور يوليانيوس هذه

الكنيسة وأزالت معالمها ثم شيدها الإمبراطور فالنسي بعد ذلك بستتين وجعلها مقرا لطارقة الإسكندرية واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن استولت العرب على هذه المدينة في سنة ٦٤٠ من الميلاد ثم هدم في سنة ٩١٢ في أيام الخليفة المقتدر بن المعتضد وقد وجد تحت أساس القيصريوم عدة قبور وجملة كل من أحجار كبيرة الحجم وهذا مما يثبت أن أحجار الهيكل استعملت لبناء قبور النصارى والاستحكامات العربية المعدة لتحصين المدينة من جهة البحر وبعد أن حاصر الفرنسيون مدينة الإسكندرية في سنة ١٧٩٨ شيّدوا على مرتفع من الأرض كائن بالقرب من مسلات قيصر يوم قلعة سموها قلعة كيلوباتره وعلى هذا فكان مرشح حروب بونا برته في عين المكان الذي تحصن فيه من قبله بثمانية عشر قرنًا الإمبراطور قيصر حينما حوَّصر في قسم السرايات الذي كان ممتدًا إلى تلك الجهة.



## هيكل نبتون والتيمونوم

إذا بارح الإنسان جهة القصير يوم متبعًا الساحل شاخصًا إلى رأس لوشياس يرى شبه جزيرة محتوية على أبنية خربة توجد عند نهايتها صخور عديدة وبقرّب هذه الصخور على بعد عدة أمتار منها خرابات أخرى في البحر لم تندثر إلى يومنا هذا.

وأما البناء الكبير المربع المبني بالآجر فيشاهد فيه قنوات عديدة وقباب متصلة ببعضها ومسامتة لأفواه أفران قد تحول ما فوقها من الآجر إلى ما يشبه الزجاج اللامع وذلك بسبب تأثير النار عليه وليس هذا الأمر عام على جميع الجدران بل قاصر على البعض منها إنما يُرى على أي حال تأثير النار عليها.

ومما نشاهده من كيفية وضع هذا المكان وطريقة بنائه تحكم أنه كان معدا للاستحمام بالمياه الحارة ومما قاله الشهير استرابون في هذه الجهة يعلم أن هيكل نبتون كان مشيدًا عليها فإنه قال «ويُرى البوزيدوم بعد القيصر يوم مباشرة والبوزيدوم هذا عبارة عن القطعة البارزة من الساحل إلى داخل البحر من المكان المسمى إمبور يوم وقد بنى في هذا المكان هيكل بوزيدون أي نبتون» وما كان على الشاطئ مكان أليق لتشييد هيكل لنبتون مثل هذا المكان ولذا سمي بالبوزيدوم وهي تسمية مستنبطة من أحد ألقاب هذا الإله على أنه لا يوجد على سواحل المينا الكبرى بقايا تدل بكثرتها على بناء ذي أهمية مماثلة لأهمية هيكل متوسط فضلًا عن هيكل نبتون المشهور بعظم الاتساع فلذا نرى أن

البوزيدوم كان ولا شك مشيداً على الرأس المصطنعة التي كانت موجودة بتلك الجهات في ذلك العهد ثم سطا عليها البحر بعد ذلك.

وأما وجود مباني لها علاقة بالحمامات فلا ينافي أبداً ذلك إذ لا شيء يمنع من وجود حمامات حول هيكل نبتون خصوصاً وأن هذه الحمامات كانت لم تشغل إلا الجزء الأسفل من تلك الآثار ولا داعي هناك للاندھاش والتعجب من هذا الفرض والتخمين فإن العادة في الأزمان السالفة قضت أن الحمامات لا توجد فقط حول السرايات بل أيضاً حول المباني الدينية ومن هنا لا نندھش من وجود حمامات في المكان الذي نحن بصددده.

ويرى قبل وبعد بقايا البوزيدوم آثار جسر كان داخلاً في المينا وهو مركب من كتل كبيرة من الأحجار عرض الحجر منها متر واحد وطوله ثلاثة وهي موضوعة فوق بعضها طبقات ارتفاع الطبقة منها متر واحد ويرى على الجزء الشرقي أيضاً عدد من أحجار منحوتة وبقايا أفريز يظهر أن الجزء الأعلى منه قد تهدم واستعمل ما استخرج منه في تشييد بعض أبنيتنا الجديدة.

أما التيمونوم فكان مشيداً في وسط المياه على نهاية امتداد طرف البوزيدوم وهو عبارة عن سراية منفردة شيدها الإمبراطور أنطوان بعد انهزامه في واقعة أكتيوم وذلك أنه لما هجرته خلانه وجفته أعوانه أقبل على الإسكندرية وصمم أن يعيش فيها منفرداً عن هؤلاء الناس وقال استرابون مبيناً وضع التيمونوم «وقد بنى أنطوان على نهاية البوزيدوم الذي كان هيكل نبتون مشيداً عليه جسراً طويلاً انتهى إلى وسط المينا ثم شيد على نهايته هذه بيتاً ملوكياً سماه بالتيمونوم» وقال العالم الفاضل سنجنتيس الفرنساوي أن التيمونوم كان موجوداً على نهاية

جسر طويل متصل بقطعة بارزة من الساحل توجد قبل البوزيدوم مباشرة وليست متصلة بهذا الهيكل كما ادعاه البعض أما مبداء جسر التيمونوم فكان عبارة عن الشبه جزيرة الصغيرة المغطاة في أيامنا هذه بالمياه وهي التي توجد أمام الإنسان إذا غادر مكان القيصريوم والآثار البنائية الموجودة الآن هناك كانت متعلقة إذ ذاك بهذا الجسر.

## اللوشياس وسراياته

يظهر أن النهاية الحالية لرأس لوشياس قد تغيرت كلياً ولو أن مادتها المصنوعة منها صلبة قوية والسبب في ذلك هو أن رصيف أكرولوشياس والصخور التي تليه كانت لها بمثابة حصن منيع مدة طويلة من الزمن فلما أن سطا البحر على هذا الرصيف وما جاوره من الصخور تغيرت الصورة الأصلية للساحل.

وكانت أراضي لوشياس المثلثية الشكل مزينة بالبساتين النضرة والسرايات المشيدة المتقنة وكانت بالنسبة لحسن موقعها واعتدال هوائها تتهاافت ملوك اليونان ووكلاء الرومان بين مصر على سكنها ثم أخذ الأمراء وكبار الموظفين من معية الملك وبطانته يشيدون القصور المفتخرة بجانب سرايات ملوكهم حتى صارت هذه الجهة مقراً للأمراء الإسكندرية وأغنيائها.

وبعد أن تحلت هذه الجهات بتلك المزايا العظمى والاختصاصات الكبيرة واستمرت على هذا الزمن المديد أصبحت الآن وقد عضها الدهر بنابه قفراً بلتغاً خاوية على عروشها مجردة عن كل ما يزينها أو يدعو النظر إلى رؤيتها وصارت معرضة للأمواج تسطو عليها وتلتهم أراضيها حتى لقد ظلت الآن بمثابة جسم نزع ما فيه من اللحم ولم يبق به إلا الهيكل أي العظام فقط فانظر - رعاك الله - إلى هذا الفرق الواضح والبون الشاسع فإنها في الأزمان الحالية كانت ذات منظر بهيج وكانت مقراً للملوك والأمراء ومربعاً للأغنياء والوزراء

هذا خلاف ما احتوت من الآثار التي لا يندثر ذكرها مدى الدهور والأعصار  
كهيكل نبتون والتمونوم والقيصريوم ومسلاته الخ.

والآن لم يبق من هذه العجائب كلها إلا أراضٍ قاحلة لا يخترقها غدير من  
الماء العذب وتذكرنا البقايا المنتشرة بتلك الجهات ما كانت عليه تلك البلدة  
الزاهرة من البها والبهجة والسناء وتبين الفرق العظيم الذين بينها وبين المدينة  
الجديدة التي ليس لها في مجارة الأولى أدنى نصيب ولا يخفى على الناقد البصير  
أن شمس العلوم قد أفلت واحتجبت عن أفق البلاد المصرية وعن  
الإسكندرية بالأخص لأن أهلها لما أرادوا أن يبرهنوا على جهالتهم اشتغلوا  
ببيع ما يقع بأيديهم من الآثار القديمة واستخراج ما بباطن البحر من الأعمدة  
الشمسية ليضعونها في زوايا بيوتهم أو في مداخلها ولم يعلقوا بحفظها أدنى  
أهمية ولكن يتعين علينا أن نحمد الله ونشكره على ما أودعه في هؤلاء الناس  
من الإحساسات الكريمة التي لولاها لدفعهم الجهل والطيش على استعمالها  
استعمالاً لا يكون سبباً في تلفها.

ولقد وجد بعضهم في جهات كرموس تابوتاً مصنوعاً من حجر السينيت  
وهو مجعول بصفة حوض تشرب منه خيول إسطبل بجانبه ووجد أيضاً تابوتاً  
آخر من الرخام الأبيض وهو مزين بنقوش لطيفة كالأغصان وقد استعملته  
الكافة سبيلاً تشرب منه السابلة وهو يوجد على باب إحدى القهاوي.

## الموزيوم (المتحف)

قال استرابون «من متعلقات السرايات الملوكية الموزيوم وندوته الواسعة التي كانت تجتمع فيها للغداء أعضاء المجمع العلمي المسمى بمدرسة إسكندرية ومن المعلوم أن علماء هذه المدرسة كانوا يعيشون من الأرزاق التي تصرف إليهم من الخزينة العمومية على يد كاهن يتدبه الملك لذلك أما في أيامنا هذه فالقيصر هو الذي يتدب ذلك الكاهن».

وعليه فكان الموزيوم المتقدم الذكر عبارة عن مجتمع علمي أسسه بطليموس سوطر وهو المشهور باسم مدرسة الإسكندرية وكان رئيس هذه المدرسة بعينه الملك وأما بطليموس المتقدم الذكر فكان رجلاً مهذباً عالماً يحب معاشرة العلماء والامتزاج بهم فخصص لسكنائهم جزءاً من سراياته يظهر من تسميته إياه بالموزيوم أنه كرسه للإلهات المسماة (موز)<sup>(١)</sup> هذا وقد ورثت مدرسة الإسكندرية شهرة وأهمية مدرسة هليوبوليس أي عين شمس التي كانت مصدر العلوم والمعارف قبلاً ولم يكتف علماء مدرسة الإسكندرية بحفظ علوم المتقدمين فقط بل شمروا عن ساعد الجد والاجتهاد لحل طلاسمها

(١) هن من ولد المشتري ومنيموزين وكن آلهات الفنون الأدبية وبالأخص الفصاحة والشعر وكانت تجمعهن وحدة الإخاء للدلالة على ارتباط الفنون ببعضها وكن تسعة الأولى كيلو وكانت آلهة التاريخ والثانية أو ترب آلهة الموسيقى والثالثة طاليا آلهة الروايات المضحكة والرابعة ملبومين آلهة الروايات المبكية والخامسة تربسيكور آلهة الرقص والسادسة ارتو آلهة الرثا والسابعة بولنيا آلهة الشعر الغنائي والثامنة أورانيا آلهة علم الفلك والتاسعة كليوب آلهة الفصاحة والشعر الحماسي.

وعمل الاكتشافات العلمية المهمة وهم الذين جمعوا أشعار شاعر القدم هوميروس المشهور ولموا شعث الكتب الفلكية والشعرية التي كانت مكتوبة على ورق البردي ولا تزال محفوظة لأيامنا هذه في متاحف باريس وقد اندفعت همم طلاب هذه المدرسة إلى إتقان علم الفلك والرياضيات والتاريخ الطبيعي والطب والنحو والشعر والتاريخ والفلسفة وممن يشار إليهم بالبنان في هذه العلوم دمتريوس دوفالير وأريستارك في النحو وهيروفيل وإيرازسترات في الطب ونيازك وأرستيد وهيبارقه وبطليموس وكانون في الهيئة وإقليدس وأبو اللونيوس وديوفانت في الهندسة وأراتوستين وأسترابون في تخطيط البلدان وسنيزيديم وشكستوس وبوتامون وأمونيوش ساكاس في الفلسفة وممن نبغ بالمدرسة الإسرائيلية أرسطوبولس وفيلون وبالمدرسة المسيحية سان بنتان وسان كليمان وقد آلت هذه المدارس فيما بعد إلى حيث تؤول إليه المؤسسات الدالة على درجة تمدن الأمم فإن نور مجدها كان شديد السناء مدة استكمال تمدن ملوك اليونان الذين استولوا على بر مصر ثم انطفاء هذا النور في عهد غيرهم وكان انحطاطها حينئذ مقرونا بانحطاطهم وفي الواقع فإن البطالسة الثلاثة الأولى وجهوا عنايتهم وصرفوا التفاتهم إلى هذه المدرسة الجامعة فارتفعت إلى أوج التقدم وطار صيتها وبعُدَ صوتها في الآفاق ثم لما أُلقيت أزمة الأحكام إلى من بعدهم من الملوك ساء حظها وسقطت من شاق مجدها فما كان أشبهها بزهرة تفتحت أكمائها حين تبلج الصبح وتنفس ثم أخذت تزداد رونقا وبهاءً حتى إذا ما هجم الليل بجيوشه ذوت فوقعت على الأرض ووطأتها أقدام العابرين.

هذا وكان السبب في سقوط هذه المدرسة من أوج رفعتها هو أنه لما فشت الفتن وعمت الإحن وتكدر صفو السلام وتراكت سحب الاختلال والاضطراب تشتت شمل هؤلاء العلماء فانتشروا ييثون معلوماتهم في أهالي رودس واليونان وسوريا وقد سقط نجم مدرسة الإسكندرية بالكلية وأفلت شمسها بانقراض دولة البطالسة غير أن شهرتها استمرت قائمة على قدم الوجود بعد ذلك بقرن واحد كانت لا تزال فيه مهد العلوم والفنون.

## دار الكتب

أما دار الكتب الشهيرة فكانت موضوعة في الموزيوم بالجزء المطل على المينا وذهب بعضهم إلى أن مؤسسها هو بطليموس سوطر في القرن الرابع قبل الميلاد وذهب البعض الآخر إلى أن مؤسسها إنما هو ابنه فيلادلف (٢٨٣ - ٢٤٧) وعلى أي حالة فإن الذي جمع الكتب في الحقيقة هو الكاتب المنشئ دمتريوس دوفالير الذي أتى في سنة ٢٩٠ ق.م إلى بلاط الملك سوطر ملتتمساً حماءه فقابل به سوطر بالإكرام الزائد وأفاض عليه خيره فلما رأى دمتريوس منه فوق ما أمل عاونه على جمع مجموعة من الكتب كان صمم على الاستحواذ عليها من قبل مجيئه ومع بذل الاجتهاد بلغ عدد ما جمع ٢٠٠٠٠٠ مجلد ولما كانت أيام فيلادلف أضيف على هذا العدد جميع كتب أرسطاطاليس التي حفظها تيوفرست زمناً طويلاً ثم أعطاها نيلى ابنه إلى ملك مصر على سبيل التنازل وكانت هذه المجموعة عظيمة جداً وكانت تحتوي على ما تيسر هذا الفيلسوف جمعه من كتب الفلسفة والعلوم والفنون وقد اختلف القدماء في عدد المجلدات التي كانت موجودة بدار كتب الإسكندرية فمن قائل أنها كانت تبلغ ٥٠٠٠٠٠ ومن قائل أنها ٧٠٠٠٠٠ ومن قائل غير ذلك غير أنه لا يحتمل بناء أن نغتر بزيادة هذا العدد لأن أغلب المصنفات الكبيرة كانت مركبة من أجزاء صغيرة والذي حملهم على تقسيمها إنما هو سرعة عطب ورق البردي وصعوبة مسك المصنف الكبير باليد والقراءة فيه فمثلاً مصنفات مارسيال التي كانت ذات أبواب عديدة قسمت إلى مجلدات بقدر عدد هذه الأبواب وكذلك قصائد الشاعر هوراس وبناء على ما أبديناه كانت دار كتب

الإسكندرية أصغر بكثير من دور الكتب المتوسطة في عصرنا هذا ولئن كانت صغيرة بالنسبة لعدد المجلدات فهي كبيرة لنفاة ما احتوت عليه من العلوم التي كانت غير منتشرة كل الانتشار في ذلك العهد وكانت دار كتب الإسكندرية موضوعة في جزء من المتحف والمتحف هذا كان عبارة عن بناء متسع به دار للكتب وقاعات للدراسة ومحلات لحفظ الآلات وبساتين نباتية وجنائن للحيوانات النادرة الوجود ومساكن للعلماء الذين تصرف لهم الأرزاق والمراتب من طرف ملوك مصر أما باقي المجموعات المختصة بالعلوم فكانت محفوظة في البروشيون أو البروخيوم وفي السرايوم وقد اختلف الرواة في سبب اندثار دار الكتب إنما الذي اجتمعت الآراء عليه في أيامنا هذه هو أن الكتب التي كانت محفوظة في البروخيوم تلقت بسبب الحريق الذي حصل في دونمة قيصر حينما ثار أهل الإسكندرية ولكن هذا الخلل أصلح فيما بعد بكتب برغام التي أهداها الإمبراطور مارك أنطوان إلى كيلوباترا ووضعت برعاية هذه الملكة في السرايوم وزعم البعض أنه لما صارت كتب الإسكندرية إلى هذا الحال دمرها عمرو في القرن السابع من الميلاد وهو زعم اتفق مؤرخو عصرنا على بطلانه وعدم صحته والحقيقة هي أن الكتب التي حفظت في السرايوم دمرها النصارى في القرن الرابع أما الأخرى فهجرت إلى سنة ٨٦٨ من الميلاد وإذ ذاك أتلها الأتراك لما احتلوا مدينة الإسكندرية وفي الموسوعات العظمى الفرنساوية في لفظه عمرو ما يأتي «وكان عمرو بن العاص شهماً كريماً حميد الأخلاق متحلياً برداء التمدن ولذا يبعد عن الظن أنه هو الذي أحرق دار كتب الإسكندرية التي كان قد دمرها النصارى من قبله بزمان مديد».

وفي الخطط الجديدة لمصر ما يأتي «إن إحراق السرابيوم كان بأمر البطريق تيوفيل بعد توقف كثير من العلماء والأهالي ثم بنى محل السرابيوم كنيسة سميت أركاديوم من اسم القيصر أركاديوس المتولي تحت القيصرية بعد القيصر تيودوز الأكبر وجعل فيها دار كتب جمع فيها ما أبقتة النار وشيئاً كثيراً من كتب النصرانية وهي التي تنسب إحراقها إلى عمرو بن العاص لكن لم يعلم وجه انتساب ذلك إليه فإن هذه الحادثة لم يتكلم عليها أحد من المؤرخين في عصره من النصارى وغيرهم ولم يظهر ذلك إلا في القرن الثالث عشر من الميلاد من كتابة تنسب إلى أبي الفرج بطريق مدينة حلب مع أنه لم يذكرها في تاريخه العام».

«ولم يجد بولص أوروذ شيئاً من الكتبخانة حين مروره بإسكندرية سنة ٤١٤ من الميلاد يعني قبل دخول عمرو بلاد مصر بمائة وثلاثين سنة فالظاهر أن القول بإحراق كتبخانة إسكندرية كان بأمر سيدنا عمرو محض افتراء اختلقته قسوس النصارى فإنه قد حصل إحراقها مراراً قبل دخول الإسلام والكتب القديمة الموروثة عن الأعصر الخالية قد محتها أيدي النصارى».

## السرابيوم

السرابيوم أو هيكل الإله المصري سرايبس كان مشيداً في الجنوب الغربي من مدينة الإسكندرية على التل الذي يرى عليه لحد الآن عمود السواري وقال استرابون «إن هيكل السرابيوم والأماكن الأخرى المقدسة توجد بجانب الترعة وقد هجرت هذه الأماكن من عهد بناء هيكل نيكوبوليس حيث يوجد كل من الأمفياتر (الملعب المدرج) والاستادة التي تعقد فيها الألعاب الغربية كل خمس سنين مرة».

وكان للإله سرايبس بمصر إذ ذاك عدة هيكل أقدمها هو الذي كان بمدينة منفيس وقال بوزنياس أن أكبرها هو هيكل السرابيوم وأن الذي شيده هو بطليموس سوطر على مكان معبد صغير كان معداً لعبادة إيزيس وأوزيريس الإلهين الأخذين في حماهما سكان قرية رقودة القديمة.

ومن هنا يثبت الثبوت التام أن ملوك اليونان كانوا متدينين بديانة قدماء المصريين وقال اميان مرسلان «يوجد بمدينة الإسكندرية جملة هيكل تدهش النظر بفرط اتساعها وزيادة ارتفاعها ومع كل ذلك فكان هيكل السرابيوم أكبرها ارتفاعاً واتساعاً ولا يمكن للقلم أن يقوم بوصف ما بهذه البنية الجسيمة من غرائب الصناعة وعجائب الفنون فإني قد رأيت أن أبواب هذا الهيكل كبيرة جداً ومنمقة بالأعمدة والتماثيل المنزهة عن النظر والمثيل التي تحاها تنطق مع أنها صامتة ساكتة وتتوهمها تتحرك وهي جامدة ثابتة إلى غير ذلك من الغرائب التي باستلفات نظري إليها واستجذاب عقلي لها جعلتني أحكم بأن ليس في

الدنيا بأسرها بنية تشبه هيكل السرايوم وهيكل الكابتول بروما» وقال رفان الذي كان قاطنا بالإسكندرية في القرن الرابع من الميلاد «أن تل السرايوم لم يكن تلا طبعيا بل مصطنعا ويظهر للمتفرج أن الهيكل المشيد عليه معلقا في الهواء غير ثابت على قاعدة ولا يمكن الوصول إليه إلا بعد قطع مائة درجة من السلام والجزء الأسفل منه تسامته القباب العظيمة وهو منقسم إلى مماش طويلة وقاعات مربعة للاحتفال فيها بالأسرار المقدسة أما الجزء العلوي منه فكان مخصصا للعبادة ولمبيت الكهنة أما داخل المذبح فكان من الإتقان وزيادة التمييق بمكان لا يمكن معه القيام بوصف ما به من الزينة والنقوش العجيبة» وكان بالسرايوم دار للكتب تحتوي على كتب نفيسة ولكنها لم تكن مثل دار كتب الموزيوم ولذا سميت بدار الكتب الصغرى ويظهر أنها كانت مجمولة في القاعات الواسعة المتعلقة بالهيكل وكان بها ما ينيف على ٥٠٠٠٠٠ مجلد من ضمنها ٢٠٠٠٠٠ مجلد أخذها أنطوان من دار كتب برغام وأهداها إلى كيلوباتره ولما أحرقت دار كتب الموزيوم ازدادت أهمية السرايوم زيادة عظيمة حيث نقلت إليها مدرسة الإسكندرية وبقت فيها شيدة الأركان قوية الدعائم إلى آخر القرن الرابع من الميلاد وقال أمبير كان السرايوم عبارة عن كعبة الديانة المصرية ومحط رجال طلاب العلوم الفلسفية.

قد نسب بعض المؤرخين إحراق دار كتب السرايوم إلى عمرو بن العاص ذلك أنه لما فتح الإسكندرية كان بهذه المدينة عالم من علماء المذهب اليعقوبي يسمى يوحنا النحوي تعرف به عمرو وأحبه فانتهاز يوحنا فرصة هذا الحب للالتفات وطلب منه أن يعطيه كتب الفلاسفة التي بدار الكتب فمال عمرو إلى تنفيذ مأربه ثم خشي أن لا يأذن له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله

عنه - فحرر له خطابًا يخبره فيه بطلب القسيس فكتب إليه أمير المؤمنين إن كانت تحتوي على ما في القرآن فليس لنا حاجة بها وإلا فلا فائدة لنا فيها وعلى كلا الحالين ينبغي حرقها<sup>(١)</sup> وقال أبو الفدا إن هذه الكتب استعملت لحريق حمامات الإسكندرية مدة أشهر متوالية وهو أمر من المبالغة بمكان عظيم فضلا على أن التصديق به يحتاج إلى الاستثبات وزيادة التروي ومن بحث يجد أن أبا الفدا كان موجودًا في أواخر القرن الثالث عشر من الميلاد أي بعد تاريخ الحوادث التي تصدى لذكرها بستة قرون أنه هو المؤلف الوحيد الذي تكلم في هذا الصدد أي أن عمر أحرق دار الكتب وجميع الذين نقلوا هذه الحادثة من المؤرخين لم يبدوا فيها ما عن لهم من الآراء والتمحيص بل نسبوا برمتها إليه وخصوصًا الأوروبيون منهم فإنهم بما في طباعهم من التعصب وفي أفئدتهم من تشيع زادوا هذه العبارة تهويلا ونسبوا للعرب التوحش والجهل وأطلقوا غلظة (عمر) علمًا على الجاهل إلى أن حصحص الحق وتبلج نوره فانقلبوا بأن ينسبون إلى أنفسهم هذه العملة الشنيعة حيث اعترفوا الآن أن توفيل بطريق الإسكندرية (٣٨٩) هو الذي دمر السرايوم وبيان ذلك أن بعضًا من الفلاسفة والنحويين والشعراء التجئوا إلى هذا الهيكل فرارًا من بطش النصارى الذين كانوا يركضون وراءهم فظنوا أنها في موئل من انتقام أعدائهم منهم غير أنهم انجبروا على الذب عن ساحة ديارهم ودار ملتهم ولكن لم يجد اجتهداهم في

(١) ويظهر أن هذه الرسالة لم ترسل إلى عمرو بن العاص بل أرسلت إلى سعد بن أبي وقاص وذلك أنه لما فُتحت أرض فارس ووجدت فيها كتب كثيرة كتب هذا القائد إلى عمرو بن الخطاب يستأذن في شأنها وتنقلها للمسلمين فكتب إليه عمر - رضي الله عنه - أن أطرحوها في الماء فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وأن يكن ضلالا فقد كفانا الله فطرحوها في الماء أو في النار.

المدافعة نفعًا إذ أن النصارى رد إليهم منشور يأمرهم بتخريب جميع الهياكل الوثنية فقصدوا السرايوم ودخلوا منه وكسروا مذابح آلهة المصريين بعد أن أخرجوا من كان فيه من الكهنة والعلماء ولما تم لهم الاستيلاء عليه حولوه إلى كنيسة سموها الأركاديوم وكنيسة أركاديوس خليفة الإمبراطور طيودوز الأكبر أما تمثال سرايس الجسيم فقد سلبوا ما كان عليه من الحلي والزينة ثم هشموا وجهه ورموا أجزائه في الطرق التي بجوار الهيكل وأثر ذلك تلقى بطارقة الإسكندرية أمرًا من طيودوز يخول لهم حرية اضطهاد كل ما كان غير متعلق بالديانة النصرانية فلما قرءوا هذا الأمر وفهموا مغزاه قست قلوبهم وغلظت أكبادهم فنفذوا بلا توان ولا إمهال وكان ما أظهره من القساوة والأعمال الوحشية دليلاً على تجردهم من عواطف الشفقة وأميل المرحمة لسعيهم وراء صالحهم الخاص ومنفعتهم الشخصية ولما وطدوا أركان ديانتهم أخذوا يضطهدون الناس ويعتدون عليهم لا يوزعهم عن ذلك وازع أو يلوهم عنه قول ناصح ومن الفضائع الكبيرة والنوائب المجتاحة التي أتى بها نصراء الديانة المسيحية بالإسكندرية (وهي أنموذج لما ارتكبه منها) أنهم سبوا هيباطيا بنت العالم الرياضي المشهور طيون سبا علنيا وثلّموا أشرفها وساموها خطة خسف وكيفية ذلك أن المسمى بطرس خطفها من عربتها وساقها أمامه إلى كنيسة القيصر يوم تصحبه شزيمة من سفلة القوم وهمجهم فلما وصلوا إلى هذا المعبد جردوها من ثيابها وقطعوها إربًا إربًا ثم توزعوا أعضاء جسمها التي كانت تضطرب بأيديهم لبقاء آثار الحياة فيها وانطلقوا يحرقونها في المحل العمومي المسمى سينارون وقد حصلت هذه الفعلة الشنيعة أمام القديس سيريل أسقف الإسكندرية وابن أخ توفيل المتقدم الذكر وكانت هيباطيا ذات

حسن متألق ونضارة رائقة وطلعة لا تمل وكانت هذه الأوصاف الطبيعية ليست شيئاً بجانب أوصافها الأدبية فإنها كانت ذات قريحة وقادة وبصيرة نقاده لها مشاركة كلية في الفلك والفلسفة وانتهت إليها أكثر الفنون ولذلك لقبت بالفيلسوفة وكانت تدرس للجمهور مذهبي أرسطاطاليس وأفلاطون.

وكان لهذا العهد لم تزل العلوم قائمة السوق مشرقة الأنوار قوية المعالم شديدة المقاوم سامية البناء إلى أن تظاهرت ديانة النصرانية بمنشور طيودوز المتقدم (٣٨٩) فعفي نصرأؤها معالم الحكمة وسبلها وأزالوا رسمها وطمسوا ما كانت أبانته القدماء وأوضحته الحكماء ولم يكتفوا بذلك فقط بل غيروا وضع الأبنية وقلبوا شكلها لتكون صالحة لشيء يلائم الدين الجديد ولما أتلفوا دار كتب السرايوم انجبروا على تأسيس دار أخرى للكتب امتزجت فيها الفلسفة النصرانية بما بقي من فلسفة الوثنيين بإرشاد البطارقة وتحت ملاحظتهم فإذا تحقق أن عمرو بن العاص هو الذي حرق كتبخانة بالإسكندرية فإنما يكون حرق هذه الكتبخانة وليش كتبخانة السرايوم كما ادعى البعض على أن من يراجع ما كتبناه في ذلك الموضوع بالفصل المتقدم ينفي عنه هذه التهمة بالكلية.

وقد دلت عمليات الحفر التي أجريت سنة ١٨٧٣ بإدارة ومعرفة المرحوم محمود باشا الفلكي أن السرايوم كان مشيداً على الأكمة الصغيرة التي يوجد عليها الآن عمود السواري وقد وجد تحت التراب جملة من التماثيل الحيوانية وصور طيور مصنوعة من حجر الجرانيت وعظام ثور وأعمدة كثيرة مكسرة وتيجان أعمدة وأبدانها وأثنى عشر حائطاً سمك الحائط الواحد منها متران.

وقال العالم المتقدم الذكر «إن من مشاهدة هذه الحيطان وفرط سمكها يعلم الإنسان اتساع البناء الذي كانت أساساً له فإن طول أحد أضلاع هذا البناء بلغ ١٨٠ متراً وفي وسطه عمود السواري» ومن هنا يتحقق لنا أن هذه الجدران هي من آثار السرايوم يؤيد ذلك انطباقها على أقوال جملة من قدماء المؤرخين فإن منهم من قال «وهو كائن على مرتفع من الأرض في داخل البلد وعلى الشاطئ الأيمن من التربة بقرب القنطرة الثانية الموجودة تحت الأرض».

ثم إن من اختبر التل وجد أن ارتفاعه يبلغ فوق استواء الطرق القديمة المجاورة له من ١٨ إلى ١٩ متر وهو مقابل بالضبط إلى المائة درجة التي ذكرها رفان وبواسطتها كان يصل الإنسان إلى باب الهيكل.

وإليك مؤدى ما قاله عبد الله بن خالد الملقب بالشامي الذي كان عائشاً في القرن الثامن من الميلاد عند كلامه على السرايوم «إن عمود تل السرابي كان في وسط مائة عمود آخر تحمل رواق الحكمة وكان هذا الرواق يحتوي على كتب قديمة ونفيسة جداً مكتوبة بحروف لا يحل رموزها إلا العلماء والمنجمون وقد دمر النصارى هذه الكتب خوفاً من أن يتوصل سحرة الوثنيين بواسطتها إلى الإضرار بهم ولأجل أن يتأكدوا من عدم بقاء كتاب من هذه الكتب فقد هدموا الذي كان يحتوي عليها وجعلوا أعاليه سافله على أن الدهر لم يتجاوز عن ذنبهم بل جازاهم بمثل ما فعلوا فساق إليهم عمرو بن العاص فأحرق خزانة الكتب التي أسسوها برسمهم».

وفي المرتفع الرملي الذي يوجد بين كرموس ومينا البصل خلف مكان السرايوم عدد عظيم من الآبار والمسارب وجملة قاعات مظلمة تحت الأرض

تتصل ببعضها البعض من جميع جهاتها وهذه المباني عبارة عن كهوف النصرى أما الكهوف المحفورة من جهة الغرب فقد تحربت لضرورة استخراج الأحجار اللازمة للبناء منها ولم يبق الآن من هذه الكهوف إلا محلا صغيرا كان معدا للصلاة على الأموات اكتشفه العالم نيروتسوس بك سنة ١٨٥٨ م وقد كانت اعتنت بها الحكومة في بادئ الأمر ثم تركتها تحت رحمة التلف والاندثار وأما قطع الفخار التي توجد منتشرة على سطح المرتفع المتقدم الذكر فليس بها من النقوش ما يستدل منه على أصلها ولكن ما يجده الإنسان أحيانا في تلك الجهات من المصاييح الصغيرة المصنوعة من الفخار يرى عليه رسم الصليب المنحني المختص بالمذهب المصري ويوجد بدلا من القنينات الضيقة المستطيلة المصنوعة من الطين المستوى أو من الزجاج لاحتواء المواد العطرية المخصصة لدهن جثث الأموات توجد مسائب مستديرة أو مسطحة كانت مستعملة لدهن جثث الأموات توجد مسائب مستديرة أو مسطحة كانت مستعملة عندهم لحفظ الزيت المبارك الذي كان يؤتى به من قنديل قبر القديس مناس بقرب بحيرة مربوط وكانوا يدهنون به الأحياء زاعمين أن به سر خفي يشفي كل داء عقام وكانوا يدهنون به الأموات أيضا لسلامة أرواحهم وقد عثر بعضهم على جملة وسامات تتعلق بالأزمة الأخيرة من حكم قسطنطين الأكبر في أحد جهتيها صورته وهي غير واضحة كل الوضوح وفي الجهة الأخرى صورته بنفسه راكبا على حصان راكض وهو شير بيده إلى يد أخرى سماوية متدللة له من وسط السحاب كأنها تدعوه إلى السماء وبناء على ذلك فجميع هذه الآثار تدل على أنها متعلقة بالديانة النصرانية ومن مصنوعات بخلاف القبور فإنها لا تختلف في شيء عن باقي القبور الوثنية وكانت قبور النصرى

بإسكندرية كقبور غيرهم من المصريين واليهود واليونان الرومانيين مصنوعة على حسب مقتضيات القانون المذهبي المصري القديم والشرائع اليونانية التي كانت تحكم البلاد في ذلك الحين وهذه القبور إذا قال التاريخ بأن حرمتها انتهكت في وقت من الأوقات فذلك إنما هو لأن النصارى كانوا يستعملونها كمحل لاجتماعاتهم السرية حينما كان الجمهور يهيمهم بأنهم عاملون على معاكسة الحكومة وإخفاق مساعيها وإحباط مشروعاتها وكانت أهالي الأموات وأقاربهم وأصحابهم وبعض من القسوس يجتمعون في أيام معينة لعمل الصلاة على أرواحهم بشرط أن لا يطلع أحد على ما يجرونه واستمرت هذه المصلاة محلاً لإجراء الواجبات الدينية ليس إلا وكان النصارى يلجئون إليها عند وقوع الأخطار والأهوال بالمدينة وقد فعل مثل ذلك القديس أطناز فإنه اختفى في قبور عائلته أربعة شهور تخلصاً من مظالم خصمه رئيس بطارقة القسطنطينية وذلك في عهد كل من فلنسيان وفلنس سنة ٣٦٧ ميلادية.

## عمود السواري

إن أول أثر تتمتع بمشاهدته عين الإنسان إذا دنا من الإسكندرية هو عمود دقلطيانوس المشهور بعمود بومبيوس وهو الذي نسبت الكافة إنشاءه إليه بدون إعتدال على سبب سوي تذكّار موت هذا الإمبراطور الروماني الشهير ببلاد مصر وهو منعزل على قمة تل السرابيوم أشبه شيء بشاهد قبر فهو يذكرنا بما واره التراب حوله من بقايا المباني القديمة والمآثر الفخيمة وهو مركب من أربع قطع من حجر الصوان التاج والبدن والجلسة والقاعدة ويبلغ ارتفاع الكل ٢٨ مترا و٧٥ ستيمترا للتاج منها ثلاثة أمتار وواحد وعشرون ستيمترا وللبدن ٢٠ مترا ونصف وطول أعظم قطر فيه ٢,٦٨٤ وعلى حسب الوزن النوعي للصوان يكون وزن البدن وحده ٢٨٩٨٦٩ كيلو جرام ووزن العمود كله ٥٥٠٤٩٢ كيلو جرام.

وإذا شوهد من مسافة بعيدة ترى العين منه منظرا بديعا وهيكل أنيقا يسر النظر ويذهل اللب لدقة قوامه وإتقان صناعته.

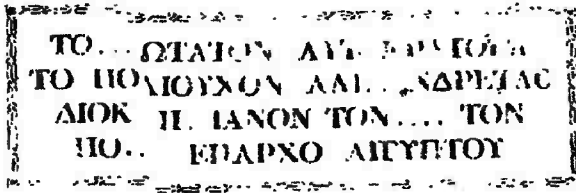
ولما كان هذا العمود من عداد الآثار المستحقة الذكر يجمل بنا أن نقول إنه يفوق جميع الأعمدة والمسلات التي من نوعه لما فيه من المزايا التي خص بها من غرابة الصنعة وحسن الذوق وزيادة التنميق حتى قلدته جميع الأمم في عمل الأعمدة التي تتحلّى بها الآن مبانيهم وآثار شوكتهم ومن تأمل بعين البحث والنقد يرى أن عامود السواري مائل ميلا خفيفا إلى الجهة الجنوبية الغربية ويقال إن ذلك ناشئ عن تغير كتل الأحجار التي يستوي عليها السفلى وليس

من هبوط الأرض تحته كما يتبادر للذهن وهذه الأحجار مختلفة الأشكال متباينة الحجم غير موضوعة على حسب ما يقتضيه النظام الهندسي فإن منها ما كان أصله قطعاً كبيرة من أعمدة قديمة وهذه القطع موضوعة وضعاً أفقياً ماعدا قطعة منها موضوعة وضعاً رأسياً ومنها قطعة كبيرة من المرمر مكتوب عليها باللغة الهيروغليفية كتابة اندثر منها بعضها وبقي البعض الآخر وأما أساس السفلى فمشهور بزيادة سمكه في الأرض ويكفي لمن أراد الوقوف على ذلك أن يزور بعض القبوات الموجودة عند أسفل هذا الأثر ويوجد مدخلها الذي يماثل مدخل القبو من الجهة الشمالية الشرقية من طرف المقبرة الإسلامية الحالية وسبب تخرب السفلى ناشئ من بعض الخل.

بالاطلاع على كيفية تشييد هذا العمود العظيم من وسائل العمارة رد على الذين كانوا يزعمون أن لا وجود لأعمدة يونانية بالإسكندرية وبعيدا عن هذه الأمور المردودة طبعاً ببقاء هذا العمود المانع الصوان بالمحل الذي أسس فيه من اللحظة الأولى، ولما كانت سنة ١١٧١ ميلادية أمر أحد حكام الإسكندرية بتكسير أعمدة لتكون بمثابة حاجز يمنع هجوم الأمواج على سور المدينة، ويرد الأعداء من الشاطئ إلا أنه لم يجرأ على مس عمود السواري من هذا الاتجاه لأنه كان كثير النفع جزيل الفائدة وكفى به ذلك أن يكون دليل للقوافل والسفن التي تقصد الإسكندرية من أقاصي بلاد الغرب فضلاً عن أن وجوده زينة للمكان الذي تقيم فيه الأهالي أعيادهم العرفية.

وفي أيام حكم الأتراك أي من ابتداء القرن السادس عشر أجريت ترميمات عديدة في السفلى وقد أعاد الفرنسيون نفس هذه الترميمات بإنشاء قاعدة مربعة منتظمة حوله.

ويرى على القاعدة نقش بالأحرف اليونانية مغزاة أن أحد ولاية مصر شيد هذا العمود تذكراً للإمبراطور دقلطيانوس وتشعبت أقوال المؤلفين في هذا الوالي بسبب الخلل الحاصل في النقش أو الالتباس الواقع في هذا الاسم فالبعض منهم يذهب إلى أنه توبليوس أو بومبيوس أو بومبيوس والبعض الآخر خلاف ذلك وعلى أي حال من الرواية التي نصت تكريس هذا العمود من بومبيوس الوالي هي المميّزة عن غيرها لكثير من الوجوه منها أنها إثبات للمشهور من الآراء لأن في هذا البيان وإليك النص المنقول باللغة اليونانية كما هو.



ومعناه هو «أني الإمبراطور الواسع العقل حامي الإسكندرية دقلطيانوس الجليل. قد كرس هذا الأثر إليك بو... والي مصر».

يذكر أبو الفدا في تاريخه أن الذي شيد العمود هو الإمبراطور سيوير وهذا القول يظهر أنه من الحقيقة بمكان مكين لأن شكل العمود ونظامه يختصان بزمان أسبق من الزمن الذي كرس هو فيه للإمبراطور دقلطيانوس وبناء عليه تتعين صحة ما أبداه أبو الفدا من أن هذا العمود كان من أيام الإمبراطور سبتيم

سيوير في أواخر القرن الثاني من الميلاد وهو زمن كان الرومانيون فيه عارفين بدقائق علم الهندسة حتى أنهم شيدوا بالإسكندرية المدينة اليونانية عامودا من الشكل اليوناني ومن هنا يتحقق لنا أن العمود شيد باسم سيوير ثم أنه تكبد التغيرات المختصة التي لا بد منها لكل أثر من الآثار العظيمة وأن الوالي بومبونيوس أو بومبيوس كرسه بعد ذلك اختلاسا إلى دقلطيانوس.

والظاهر أن الوالي المتقدم الذكر كرس هذا العمود لدقلطيانوس تزلفا إليه وهربا من ظلمه فيستتج من ذلك أن هذا التكريس كان من قبل الوالي فقط وليس من قبل أهالي الإسكندرية الذين لا يتسنى لهم طبعاً أن يهدوا أثرا مثل هذا العامود إلى من عاملهم بالقسوة والعنف وخرب بوزيره بس وكيوتوس ليحيط بذلك مشروعات أحد وجهاء المدينة المدعو أشيله لقيامه بين أبناء وطنه وحثه لهم على الثورة والمناذاة بالاستقلال ولا يخفى على الناقد البصير أن مثل هذه الآثار لا تهدي إلا لمن كان من الملوك حسن السيرة عادلا رءوفا برعاياه.

أما دقلطيانوس فالأفعال التي أتى بها هي غير ذلك حيث أنه انتقم بصرامة من أولى التظاهر وغير إدارات المدن والبلدان تغييرا مجحفاً بحقوقهم وأمتد ظلمه الذي صار اسما من أسمائه حتى أصاب الأقباط.

ولاشك أنه بعد إيراد هذه البراهين الشافية لا يتردد أحد في أن نسبة تشييد هذا العمود لدقلطيانوس هو من قبيل اختلاس الحقوق ومما ستعظمه الآن من سلوك الإمبراطور سبتيم سيوير مع أهالي الإسكندرية لا يبقى أدنى ريب في أن هذا العمود أنشئ في أيامه وشيد باسمه مترجما لما في قلوب الرعية من الشكر له والثناء عليه لما أجراه من الأفعال المشكورة والمآثر المبرورة يؤيد ذلك ما قاله

المؤرخ اسبارتيان من أنه لما دخل (أي سبتيم سيوير) في الإسكندرية عامل أهلها بالإحسان والرفق وكلمهم بعبارات تشف عن رضاه عنهم وارتياح خاطره منهم حتى أنه منحهم الأمر بتأسيس مجلس الشيوخ فانصاعوا خاضعين إلى المجلس راضين بأحكام قضاته الرومانيين ولم يكن لهؤلاء القضاة مجلس قضاء وطني تقليدا لما كانت عليه البطالسة من قبل ولو فرضنا أن العمود شيد باسم دقلطيانوس لذكر ذلك في النقش المتقدم فإن هذا الأخير قاصر على اسمي الإمبراطور وإليه ولم يذكر فيه السبب الداعي إلى تشييده فحينئذ يجب الحكم بأنه صار تغيير القاعدة الأصلية بالكلية واستبدلت بالقاعدة الموجودة الآن ويؤيد هذا الظن ارتفاع القاعدة الحالية زيادة عما تقتضيه قوانين الهندسة فضلا عن أن لونها مباين للون العمود وليست ناعمة مصقولة مثله ومما يثبت بأنه نسب إلى دقلطيانوس ظلما واختلاسا هو أن الإمبراطور المذكور كان قد حاصر الإسكندرية في سنة ٢٩٨ أما وجود الإمبراطور سبتيم سيوير بالشرق فكان من سنة ٢٠٠ وقال المستر ولسن أن من ضمن ما وجدته الإنكليز من الآثار المختلفة بمدينة الإسكندرية في سنة ١٨٠١ ميلادية حجر منقوش عليه ما تعريبه «وليعلم أي إنسان تملك هذا العمود أنه شيد شرفاً وتذكراً للإمبراطور سبتيم سيوير من عساكر الفرقة الحادية عشر».

وأما العمود فهو مصنوع من الجرانيت الوردي الجيد الصقل ما عدا الجهة المعرضة منه للصحراء فإنها خشنة بسبب تأثير الرمال عليها ويرى على سطح التاج محيط دائرة عرضه سبعة سنتيمترات وقطره متران ذهب البعض إلى أنه كان معدا لتثبيت قاعدة تحمل تمثالا من الرخام.

وزعم البعض أن هذا التمثال كان من النحاس وكان متجها نحو البحر يشير بأصبعه إلى مدينة القسطنطينية وزاد هذا القائل أن أحد حكام الإسكندرية أمر بنزعه من محله وضربه عملة وقال العالم يوسف نجم الدين المندوب الذي كان عائشا في القرن الثامن من الميلاد أنه كان يوجد تمثال من الحجر بأعلى العمود القائم في وسط الجهة التي يظهر أنها كانت فيما سبق حوش هيكل وثني هدمته النصرارى وبنّت مكانه قلعة ونذكر هنا برهانا آخر يويد أن العمود أقيم في أيام الإمبراطور سيوير وهو أنه لما كان يصعب النطق في لغة العرب بلطفة سيوير على صورتها الأصلية حرفتها العرب على توالي الزمن فصارت سوارى وظنوا كما يتبادر للذهن أن هذه اللفظة الأخيرة هي جمع سارى.

وإذ قد وصلنا لهذا الحد من وصف عمود السوارى فنحن نسرد هنا أقوال من مر على الإسكندرية من مشاهير العلماء وجوابي الآفاق تنميها للفائدة فنقول قال عبد اللطيف البغدادى: «عمود السوارى أحمر منقط من الحجر المانع الصوان عظيم الغلظ جداً شاق الطول لا يبعد أن يكون طوله سبعين ذراعاً وقطره خمسة أذرع وتحتة قاعدة عظيمة تناسبه وعلى رأسه قاعدة أخرى عظيمة وارتفاعها عليه بهندم تفتقر إلى قوة في العلم برفع الأثقال وتمهر في الهندسة العملية وخبرني بعض النقاة أنه قاس دوره فكان خمسة وسبعين شبرا بالشبر التام ثم أنى رأيت بشاطئ البحر مما يلي سور المدينة أكثر من أربعمئة عمود مكسرة أنصافاً وأثلاثاً حجرها من جنس عمود السوارى على الثلث منه أو الربع وزعم أهل الإسكندرية قاطبة أنها كانت منتصبة حول عمود السوارى وأن بعض ولاة الإسكندرية واسمه قراجا كان واليا عن يوسف بن أيوب فرأى هدم هذه الأعمدة وتكسيها وإلقاءها بشاطئ البحر زعم أن ذلك يكسر

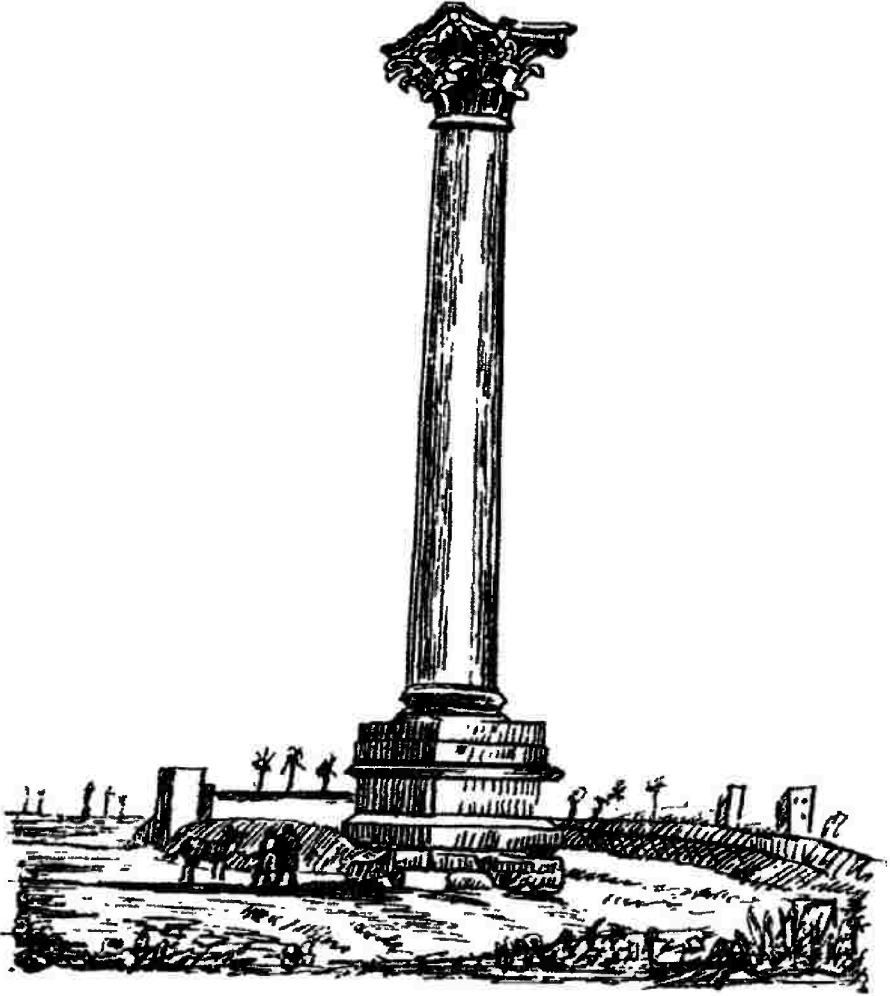
سورة الموج عن سور المدينة أو يمنع مراكب العدو أن تسند إليه وهذا من عبث الولدان ومن فعل من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة ورأيت أيضا حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف».

وقال ياقوت «ولقد دخلت الإسكندرية وطوقتها فلم أر فيها ما يعجب منه إلا عمودا واحدا يعرف الآن بعمود السواري تجاه باب من أبوابها يعرب بباب الشجرة فإنه عظيم جدا هائل كأنه المنارة العظيمة وهو قطعة واحدة مدور منتصب على حجر عظيم كالبيت المربع قطعة واحدة أيضا وعلى رأس العمود حجر آخر مثل الذي في أسفله فهذا يعجز أهل زماننا عن معالجة مثله في قطعه من مقطعه وجلبه من موضعه ثم نصبه على ذلك الحجر ورفع الآخر إلى أعلاه ولو اجتمع عليه أهل الإسكندرية جميعهم فهو يدل على شدة حامله وحكمة ناصبه وعظمة همة الأمر به».

وقال بن بطوطة في رحلته «ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها المسمى عندهم بعمود السواري وهو متوسط في غابة نخل وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة قال ابن جزي أخبرني بعض أشياخي الرحالين أن أحد الرماة بالإسكندرية صعد إلى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقر هنالك وشاع خبره فاجتمع الجمع الغفير لمشاهدته وطال العجب منه وخفي على الناس وجه احتياله وأظنه كان خائفا أو طالب حاجة فأنج له فعله الوصول إلى قصده لغرابته ما أتى به وكيفية احتياله في

صعوده أنه رمي بنشابة قد عقد فوقها خيطا طويلا وعقد بطرف الخيط حبلا وثيقا فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ووقعت من الجهة الموازية للرامي فصار الخيط معترضا على أعلى العمود فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط فأوثقه من إحدى الجهتين في الأرض وتعلق صاعداً من الجهة الأخرى واستقر بأعلاه وجذب الحبل واستصحب من احتمله فلم يهتد الناس لحيلته وعجبوا من شأنه».

وفي الخطط الجديدة ما يأتي «ووصفه العالم الروماني أفثونوس السائح في بلاد مصر وإسكندرية في القرن الرابع من الميلاد بقوله متى دخل المرء قلعة إسكندرية وجد مكانا محدودا بحدود أربعة متساوية وفي وسطه فضاء متسع محاط بأعمدة وبعده دهاليز فيها قيعان بعضها لحفظ الكتب المجعلولة لمن يريد المطالعة في العلوم والحكم وبعضها معد لعبادة المقدسين وفي وسط هذا الفضاء عمود عظيم الارتفاع وهو علم يستدل به على هذا المكان لأنه تغير عن حالته الأصلية فيتحير الإنسان ولا يدري أين يتوجه إذا أراد هذا المحل إلا بهذا العمود فهو دليل لمن أراد هذا المكان من أهل البر والبحر».



عمود السواري

### (سوما وقبر الإسكندر)

قال استرابون «أن المحل المسمى سوما أي الجسد هو جزء من السرايات الملوكية وهو عبارة عن سورمتين يحيط بقبور الملوك وبقبر الإسكندر وقد أخذ بطليموس بن لاغوس جثته من برديكاس وقت أن كان مارا بها في طريق مصر على عربة عظيمة يجرها أربعة وستون بغلا في تابوت من الذهب وقبرها في المحل الذي هي فيه الآن غير أن التابوت المتقدم أخذ فيها بعد وعوض بتابوت آخر من الزجاج والذي فعل ذلك هو بطليموس كوكسيس الملقب بباريز كتوس» فيعلم من ذلك ومما قاله بعض المؤرخين أن موضع سوما هو في أسفل التل المشيد فوقه حصن كوم الديماس.

والتلال الموجودة بتلك الجهة تحتوي على جملة قبور خاصة بأزمان متفاوتة وموضوعة فوق بعضها طبقات وهي توجد في داخل سور المدينة الحالي المشهور بسور العرب وهو عين السور القديم البيزنطي الذي رمته العرب في أزمان مختلفة ويوجد عند سفح كوم الديماس من الجهة الشرقية تحت السرايب الأولى القبور العربية المختصة بالمدة الكائنة بين القرنين الثامن والحادي عشر من الميلاد ويوجد تحت هذه القبور قبور النصارى ثم قبور الوثنيين.

وقد بني مسجد النبي دانيال فوق جميع هذه السرايب وجميع منحدر التل المحصور بين الجامع المذكور وبين الشارع الحالي المسمى بشارع باب شرقي أعني شارع كانوب القديم مملوء بقبور وسرايب تختص بما قبل المدة البيزنطية ومدد الإمبراطرة والبطالسة يؤيد ذلك ما وجد فيها من التماثيل التي من ضمنها

كان تمثال هرقل مصنوعاً بالمرمر وقد عثر عليه عند حفر أساس بعض البيوت وهرقل (الذي كانت تعتقد فيه القدماء أنه نصف إله) كان ممثلاً في هذه الصورة عاري الجسد وعلى ركبتيه جلد أسد وذراعه الأيمن الذي كان ممدوداً للأمام فهو مكسور وأظنه كان حاملاً لتفاح جبال الهسبريد أما يده اليسرى فمستندة على عصا ضخمة وإنشاء هذا التمثال هو من أحسن ما وصلت إليه فنون اليونان في ذلك الوقت.

وتاريخ وجود هذه الآثار هو من أيام البطالسة ويحدو بنا إلى الحكم بأن السوما كان موجوداً في كوم الدياس وذلك لأن موضع هذا المكان مطابق بالضبط لما رواه أغلب قدماء المؤرخين فقد قال أحدهم «إن السوما كان يوسط البلدة تقريباً وهو يطل على شارع عظيم مخفوف من جانبيه بالأعمدة الكبيرة يتقابل مع الشارع الطويل المسمى بشارع كانوب (باب شرقي) ويتتهي إلى المينا الكبرى بقرب القيصر يوم».

ولدينا برهان آخر يؤيد مدعاتنا المتقدمة وهو أن لفظة سوما أو سوماس اليونانية تشبه في النطق تقريباً لفظة ديماس العربية التي أغلب حروفها مثل أغلب حروف الأخرى وكانت لفظة سوماس تطلق على هذا المحل نفسه إلى أن دخلت العرب مدينة إسكندرية فتحرفت هذه الكلمة بكثرة التداول وصارت ديماس.

## (البانيوم والجمناز والأيبودروم الخ)

البانيوم كان عبارة عن تل مرتفع في وسط الإسكندرية وكان يمكن للإنسان أن يرى من أعلاه جميع أحياء المدينة وضواحيها إلى مسافات بعيدة جدا وكان يصل الإنسان إلى أعلاه بواسطة مدرج حلزوني الشكل وكان البانيوم المذكور الذي معناه «المنظر الشامل» أو «المنظر الجميل» محل اجتماع المتفسيحين الذين كانوا يأتون إليه أفواجا أفواجا طلبا للنزهة والراحة والتمتع بالنظر إلى جميع ما بالإسكندرية وضواحيها من المباني وغيرها وهو في أيامنا هذه عبارة عن كوم الدكة.

قال استرابون «أن الجمناز أي محل تريض الجسم بالألعاب كان موجودا في الشارع الكبير المسمى بشارع كانوب» ولم يتعين للآن موقعه بالضبط والدقة غير أن عمليات الحفر التي أجريت أخيرا بالجهة الشمالية الشرقية من البانيوم أي قرية كوم الدكة الحالية أدت إلى اكتشاف أسوار ضخمة وعدد عظيم من الأعمدة وتوجد هذه البقايا على مسافة طولها ١٥٠ مترا باتجاه خط عمودي على الاستحكامات العربية ولا بد أن تكون هذه البقايا متعلقة بالجمناز ومحكمته التي كانت تسمى الديكاستريوم وبساتينه وكانت مساحتها عبارة عن مربع من الأرض طول أحد أضلاعه أكثر من استاده أي ١٢٥ خطوة.

وإذا خرج الإنسان من سور العرب بقرب الجهة التي بها برج الرومانيين (أو بالاء حرى إذا اخترق سكة حديد الرمل) وصار على ساحل البحر يجد في كل خطوة يخطوها آثار مباني قديمة كالحمامات والعقد الجسيمة المصنوعة من

الطوب الأحمر والأسمنت وجدران أفريز مبني بالأحجار الجسيمة وغير ذلك من البقايا التي أودت بها أيدي الرجال والتهمتها أفواه الأمواج.

وإذا استمر الإنسان على السير متبعًا ساحل البحر يجد على يمينه بقايا قصر عظيم مشهور بقصر القياصرة ويجد على بعض ٨٠٠ من تلك الجهة بقايا هيكل روماني صغي على ساحل البحر وعلى بعد ٤٠٠٠ متر من باب شرقي بقرب التلول المجاورة لقصر القياصرة محل المقتلة الهائلة التي حصلت بين الفرنسيين وجيوش الإنكليز والأتراك في ٣٠ فتوز سنة ٩ من الجمهورية الموافق ٢١ مارس سنة ١٨٠١ ميلادية.

وإذا زار الإنسان يومًا عمود السواري يرى في الجهة الجنوبية من هذا الأثر المنيف مكانًا واسعًا مستطيل الشكل عميقًا محاطًا ببقايا لبغية كانت مخفية تحت الأرض وهذا المكان الذي طوله ٥٥٥ متر وعرضه ٥١ مترًا ونصف كان معدا للسباق وكانت تسميه القدماء بالأيودروم ويرى لحد الآن في وسطه آثار بناء عرضه ثمانية أمتار وله سقف طويل جدا بالنسبة لعرضه وكانت تركض حوله اللاعبون وفي النهاية الغربية من هذا البناء ثقب متصل بقناة تحت الأرض وهذه القناة متصلة ببحيرة مربوط لاستجلاب مياه هذه البحيرة إليه فيستنفع بها موظفوه في الأمور التي لها مساس بالنظافة وغير ذلك.

وكان الجزء المخصص من هذا المكان للعب مبلطًا فلذا يظهر لنا من ذلك أنه لا يصح أن يكون هو الأيودروم إذ أن من العادة أن يكون الأيودروم مخصصًا فقط لسباق الخيول ولا يصح طبعًا أن تتسابق الجياد في ميدان مبلط بحجر النحت ومما يؤيد مدعانا بأن المحل المذكور لم يكن مخصصًا لسباق

الخيول هو عدم استكشاف مكان يظهر منه أن الخيول كانت تنزل منه إلى الميدان فضلاً عن أن الطريق المعد للركض فيه ليس متسعاً بحيث يسع الخيول أو العربات لتتسابق فيه فمن هنا ينتج أن هذا المكان هو الذي كان يسميه القدماء بالاستادة الأولمبية وهو من الموءسسات اليونانية لأنه لا يخفى أن الاستادات كانت منتشرة في أنحاء بلاد اليونان وكانت مخصصة للجري بالأقدام ولألعاب أخرى تناسب ذلك.

أما أيودروم الإسكندرية فكان موضوعاً في نهاية شارع كانوب والذي نقل إلينا ذلك هو استرابون وفي الواقع فإنه يوجد في الجهة التي دل عليها هذا العالم مسطح من الأرض واسع بعلم من هيئته أنه كان مخصصاً لبناء من هذا النوع وقد وجد هناك مهندسو التجريدة الفرنساوية كتلا كبيرة من الأحجار وآثار أسوار سميكة باستواء سطح الأرض.

وإذ كانت الآثار القديمة آخذة في الاختفاء والاندثار على توالي الأيام ومر الدهور والأعوام فقد اختفت آثار بلدتنا إيفاءً بشروط هذا القانون إما تراكمت عليها الرمال وإما اتخذت بصفة مواد لبناء البيوت الجديدة وإما مختفية تحت مباني المدينة الحالية ولم يبقَ ظاهراً للعيان من هذه الآثار المنيعة إلا عمود دقلطيانوس وذلك بسبب ارتفاعه فاحترمه الزمن ووقرته الناس فلم يُمسَسْ بسوء وفي الأمل أنه سيبقي كذلك زمناً طويلاً اللهم إن لم تنشله أيدي الطمع وحب الأثرة لتتزين إحدى ساحات مدينة من مدن أمريكا أو أوروبا.

## (الكهوف (الكناكوب))

يوجد على الصخور الحجرية الواطية المعرضة لصدمات أمواج المينا القديمة من قرون مضت عدد عظيم من الكهوف المخفية التي كانت من ضمن نكروبوليس (مدينة أموات) إسكندرية القديمة وجميع هذه الكهوف تتصل بالبحر وبها قاعات حمامات مختلفة الاتساع وقاعات أخرى معروفة عند العامة بحمامات كيلوباتره ولم تكن في القدم إلا بمثابة نوامات لوضع الأموات فيها وفي نفس هذه الجهة يوجد أثر منيف قيل بأنه قبر لأحد الملوك ولا يمكن الإنسان أن يدخل فيه اليوم إلا بصعوبة زائدة لامتلائه برمال البحر والردم وإذا تأمل الإنسان يجد أن اعوجاج الساحل يكون على بعد ستين مترا تقريبا من حمامات كيلوباترا جونا صغيرا عرضه ستة وعشرون مترا وعمقه ضعف هذا العدد ومدخله مغلق بصخرتين عظيمتين بينها فضاء ضيق يسمح للقوارب الصغيرة (الفلايك) فقط المرور منها وفي آخر هذا الجون يرى المتفرج مدخل الأثر المتقدم الذكر أشبه شيء بثقب ضيق في وسط منحدر الساحل وإذا دخل الإنسان من هذا الثقب يجد نفسه في قاعة يمكنه أن يقف فيها بدون أدنى عارض يمنعه عن ذلك ثم يرى يمنا ويسرة قاعات صغيرة مربعة تستوي سقفها على أعمدة مربعة الشكل وبعد ذلك يدخل في قاعة أكبر من المتقدمة لا يمكن معرفة ارتفاعها بسبب تراكم الرمال فيها ويوجد على جانبيين من جوانبها قاعتان صغيرتان إحداهما تتصل بواسطة فتحة في الحائط إلى دهليز متسع طوله اثني عشر مترا يوصل إلى قاعة جميلة مستطيلة الشكل وعلى جوانبها أربعة أبواب جميلة ثلاثة منها محمولة على أعمدة مربعة حاملة لقناطر

مثلثة الشكل مزينة بنقوش تعلوها صورة الهلال وعلى اليسار من ذلك بناء مستدير محوف قطره سبعة أمتار ويوجد حوله تسعة أضرحة وهذه القاعة ليست ملانة بالرمال كباقي القاعات المجاورة لها بحيث لا شيء فيها يمنع الإنسان من التأمل في جميع أجزائها التي يكون لها المنظر البديع والشكل الأنيق إذا أتت الأشعة الضوئية وانعكست على الطلاء البلوري الشامل لجميع الجدران.

وإذا رجع الإنسان إلى القاعة التي بعد البناء المستدير المحوف المتقدم الذكر يترك على يساره دهليزاً هو في الحقيقة تنمة الدهليز السالف ويدخل من باب كبير في قاعة مربعة طول أحد أضلاعه ١٦,٢٠ وسقفها الأفقي محمول على اثني عشر عموداً كبيراً ولا يزال النقش باقياً على ما كان عليه من الطلاوة والبهجة وبكل من الأضلاع الموازية للمحور ثلاثة أبواب أما أبواب الزوايا فهي أصغر بكثير من السابقة والنقوش التي تعلوها مرسومة باللون الأحمر ويظهر من ذلك أن بناء هذا الأثر كان لم يتم ومن الغريب أن كل زاوية من زوايا هذه القاعة متجهة إلى جهة من الجهات الأربعة الأصلية الشمال والجنوب والشرق والغرب وإذا دخل الإنسان من الأبواب الموجودة بالوسط يرى قاعتين بجدران كل منهما ثلاثة طبقات من الفتحات يظهر أنها كانت معدة لحفظ الأجساد المحنطة ولو سار الإنسان على المحور الأكبر لهذا البناء لا يمكنه التقدم إلى الأمام لداعي تراكم الرديم الذي صار بمنزلة عائق يمنع المتفرج من الوصول لهذا الغرض.

ويظهر للإنسان بعد التأمل الدقيق والفحص أن القاعة ذات الاثني عشرة عمودًا السالفة الذكر يجب أن تكون في وسط هذا البناء الذي كان مدخله من جهة البحر ويتحقق للإنسان أن وجود أثر من أهمية الذي نحن بصدده في وسط قرية نكروبوليس القديمة لابد أن يكون لغرض مهم هو أن يكون جدثا لشخص من الأشخاص ذوي القوة والجاه كالمملوك ومقبرة لمن يموت من أقاربه فيدفن حوله وبجانب القبور المذكورة قاعات لإقامة الشعائر الدينية فيها وعلى العموم فإن شكل هذه المباني يحملنا على الجزم بأنها قبور البطالسة التي أسرع أهل الإسكندرية بإظهارها إلى أوكتاف بعد أن بينوا له موضع قبر الإسكندر وربما كانت هذه القبور أيضًا هي التي التجأت إليها كيلوباتره فإني بروكوليوس أحد قواد جيش أوكتاف وأخذها منها وذلك بعد انهزام الإمبراطور أنطوان وموته.

وإذا مر المتفرج على باقي الكهوف الموجودة بتلك النواحي يرى آثار ترعة كانت توصل في الزمن السابق مياه بحيرة مربوط بالبحر المالح وما يلي ذلك من الساحل فهو قفر بلقع لا يوجد فيه سوى محاجر يظهران أهالي الإسكندرية الأقدمين كانوا يستخرجون منها ما يلزم لهم من مواد البناء لتشييد منازلهم وتحصين معاقلهم وعلى بعد عشرة آلاف متر من حمامات كيلوباتره توجد الجهة التي كانت تسمى سرزوبز وهي المعروفة في أيامنا هذه بجهة مرابوط وكانت عبارة عن قلعة صغيرة مشيدة على طرف الصخور التي تغلق الموردة من الجهة الجنوبية الغربية وهي التي في ضواحيها نزلت العساكر الفرنسية إلى البر في ١٣ مسيدور من السنة السادسة من الجمهورية أي أول أول يولييه سنة

## (الصهاريج)

من الآثار القديمة التي تذكرنا ما كانت عليه الإسكندرية في أيام عزها من الشوكة والاقتدار الصهاريج العديدة التي كانت معدة لادخار المياه اللازمة لشرب سكانها كل سنة فإن المياه كانت تصل إلى هذه الصهاريج بواسطة خلجان صغيرة تحت الأرض متصلة بترعة كانوب وقال المؤرخ هريتوس «وفي كل منزل من منازل الخاصة بئر تتصرف إليه مياه الترعة بواسطة الخلجان فتستقر فيه ثم تصفو وتروق شيئاً فشيئاً وليس بالإسكندرية ينابيع طبيعية فلذا كان فقراؤها يقصدون الترعة نفسها للحصول على الماء وبما أن هذا الماء كان عادة غير نقي بل ممزوجاً بالطين كانت الأمراض تنتشر فيما بينهم وتفتك فيهم فتكاً ذريعاً».

وقال المرحوم محمود باشا أن ما عثر عليه من الصهاريج في مدينة إسكندرية يبلغ ٧٠٠ بعضها مركب من طبقتين والطبقة العليا محمولة على أعمدة من الرخام أو الزلط وفي المواضع المرتفعة من المدينة كانت تبلغ طبقات الصهاريج أربعة ولم تكن جميعها تملأ من الخلجان بل كان يملأ أكثرها بالقرب وفي الخطط المصرية لصاحب العطفة ناظر المعارف العمومية ما يأتي «وفي كتاب جركي الفرنسي أن جليس بيك عند إجراءات عمليات الاستحكامات كشف عن ٨٩٦ صهريجاً مبنية جميعها بالحجر واصله ببعضها وتأخذ ماءها من خليج كبير يشق البلد ويمتد إلى بحيرة مربوط وكانت تنظف كل سنة حتى لا يضر ماؤها بالصحة».

وقد وجد من هذه الصهاريج في أيام ساكن الجنان محمد علي باشا أكثر من ٣٠٠ صهريجاً صالحاً للاستعمال و٧٣ ساقية يصل ماء الترعة إليها بواسطة أربعة مجاري وكان أحدهم هذه المجاري يصب في المينا القديمة أي مينا أونوستوس فيأخذ الملاحون منه ما يلزمهم من الماء ولما أمر المغفور له محمد علي باشا بحفر ترعة المحمودية بطل استعمال السواقي والصهاريج وكان ذلك من ضمن أعماله المشكورة التي لا يمحيها كر الدهور ومر الأعوام والسلام.



## فهرس

|    |                                                  |
|----|--------------------------------------------------|
| ٣  | إهداء الكتاب .....                               |
| ٧  | لمحة عامة .....                                  |
| ١٢ | عصر اليونانيين .....                             |
| ١٥ | إسكندر الثالث المقدوني .....                     |
| ٤٣ | البطالسة .....                                   |
| ٤٥ | بطليموس سوطر الأول بن لاغوس .....                |
| ٤٧ | بطليموس الثاني فيلادلف أو فيلوذفوس بن سوطر ..... |
| ٥٠ | وصف الاحتفال المتقدم الذكر .....                 |
| ٥٦ | بطليموس الثالث أفرجيطة الأول أو أوراخيطة .....   |
| ٥٨ | بطليموس الرابع فيلوباطور (محب أبيه) .....        |
| ٦٠ | الملك بطليموس أيفان أو فينفوس .....              |
| ٦٠ | المنشور .....                                    |
| ٦٣ | بطليموس السادس فيلوميتوراي محب أمه .....         |
| ٦٤ | بطليموس السابع أفرجيطة الثاني أو أوراخيطة .....  |
| ٦٦ | بطليموس الثامن أولاطير .....                     |
| ٦٧ | بطليموس السابع إسكندر الأول .....                |
| ٦٨ | سوطر الثاني .....                                |

- ٦٩..... بطليموس العاشر إسكندر الثاني
- ٧٠..... بطليموس أولطيس
- ٧١..... كيلوباترا
- ٧٣..... المدة الرومانية
- ٧٥..... المدة العربية أو الإسلامية
- ٧٩..... إسكندرية القديمة
- ٨٥..... في الكلام على آثار الإسكندرية
- ٨٥..... (جزيرة فاروس القديمة)
- ٨٨..... المنارة القديمة أو منارة البطالسة
- ٩٨..... منارة العرب
- ٩٩..... المينا الكبرى
- ١٠٢..... (في قصورها القديمة ومبانيها العمومية)
- ١٠٢..... (في الكلام على المسلات والقيصر يوم)
- ١٠٧..... هيكل نبتون والتمونوم
- ١١٠..... اللوشياس وسراياته
- ١١٢..... الموزيوم (المتحف)
- ١١٥..... دار الكتب
- ١١٨..... السرايوم
- ١٢٦..... عمود السواري
- ١٣٥..... (سوما وقبر الإسكندر)

- ١٣٧..... (اليانوم والجمناز والأبيودروم الخ)
- ١٤٠..... (الكهوف (الكتاكومب))
- ١٤٣..... (الصهاريج)
- ١٤٥..... فهرس